الإمام علي عليه السلام

سيرة وجهاد

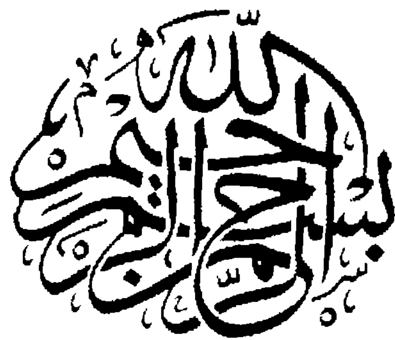
الإمام
السيد الشهيد
محمد باقر الصدر (قدس سره)





الإمام علي عليه السلام

سيرة وجهاد



الإمام علي عليه السلام

سيرة وجهاد

الشهيد السيد

محمد باقر الصَّدر

دار المرتضى

بيروت

دار المرتضى

طباعة ـ نشر ـ توزيع
لبنان ـ بيروت، ص. ب: ١٥٥/ ٢٥ الغبيري
هاتف فاكس: ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
E-mail: mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing - Publishing - Distributing
Lebanon - Beirut
P.O.Box: 155/25 Ghobiery
Tel - Fax: 009611840392
E-mail: mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هجرية
٢٠٠٢ ميلادية

تقـديم

الكتاب...

كتب الكثيرون عن حياة أمير المؤمنين وفضائله، والإشكالات التاريخيَّة التي تكتنف تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام؛ تلك الاشكالات التي ترتكز عليها الخلافات الفكرية بين مذاهب المسلمين، فنظرية الشّورى أو التعيين في الخلافة ونظريّات أخرى كعدالة الصحابة أو عدمها...، كلّ هذه الأمور تعتبر نقاط الخلاف الأساسية بين مذهب فكريٍّ وسواه.

وللسّيِّد الصَّدر باع طويل في هذا المجال، فمحاضراته وكتاباته أطلّت بتحليلاتٍ وأفكار متنوعة ترسم منهجاً

جديداً واقعيّاً في فهم تاريخ تلك المرحلة، وتنقّيه من الشّوائب التي علقت به.

تحدّث الكاتب عن مرحلة ما بعد الرّسول، والطريقة التي حُسم بها أمر الخلافة، ومدى مشروعيّة هذا الأمر، وما نتج عنه من خلافاتٍ في وجهات النّظر، كما تحدّث عن موقف الإمام عليّ من كلّ ذلك، وعن المشاكل التي واجهته، وأسبابها ومدى تأثيرها على المسلمين...

وتحدّث أيضاً عن أهداف الإمام علي السامية التي هي أهداف الإسلام العليا، وعن سعيه الحثيث إلى إقامة حكم الإسلام العادل...

والكتاب كان عبارة عن عدّة مقالات، جمعناها في هذا الكتاب، منها ما كان محاضرةً أو مقدّمة لكتاب.

المقالات الثلاثة الأولى هي: عليٌّ بعد وفاة الرسول، بعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين، وأشأم ليلة[١]

---

(١) اقتبسنا هذه المقالات من دائرة المعارف الإسلامية الشيعيّة للسيد =

وأمّا بالنسبة للفصل الثالث من هذا الكتاب، فقد تحدث فيه الشهيد الصدر عن الخلاف حول الخلافة والشورى وولادة التَّشيُّع، ونشأة الشيعة ووجودها[١].

وقد عرضنا في الفصل الأوَّل لقبسٍ يسير من فضائل الإمام علي عليه السلام لتكون مدخلاً إلى قراءة مقالات الشَّهيد الصدر، وتوطئة لها.

الكاتب: . .

ولد السيد الشهيد الصدر في ٢٥ ذي القعدة من عام ١٣٥٣ هـ، في مدينة الكاظمية، وقد هاجَرَ إلى النجف الأشرف في عام ١٣٦٥ هـ، حيث بدأت رحلته العلمية، وقد درس على ثلّة من اعلام الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وكان منهم خاله آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين، وآية الله الشيخ ملا صدرا البادكوبي، وآية الله الشيخ

= حسن الأمين، الطبعة السّادسة.

(١) اقتبسناه من مقدمة كتبها المؤلف لكتاب تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة للدكتور عبد الله فياض، عميد كلية أصول الدين.

عباس الرميثي، وآية الله السيّد أبو القاسم الخوئي رحمهم الله جميعاً.

بعد ذلك، بدأ سيدنا الشهيد بالقاء دروسه وأبحاثه على طلابه، وقد امتازت مدرسته العلمية الرائدة بالشمول والموسوعية، والاستيعاب والاحاطة، والابداع والتجديد، والمنهجية والتنسيق، والذوق الفنيّ والاحساس العقلائي، إلى كثير من المميّزات الفريدة.

ومن جانب آخر، ألّف السيّد الصدر مجموعةً من الكتب الهامة، التي لها وقع كبير في أرجاء العالم الإسلاميّ، وكان منها:

١ ـ غاية الفكر في علم الأصول ـ ٢ ـ فلسفتنا ـ ٣ ـ فدك في التاريخ، ـ ٤ ـ اقتصادنا ـ ٥ ـ المدرسة الإسلامية ـ ٦ ـ المعالم الجديدة للاصول ـ ٧ ـ البنك اللاربوي في الإسلام ـ ٨ ـ الاسس المنطقية للاستقراء ـ ٩ ـ بحوث في شرح العروة الوثقى ـ ١٠ ـ موجز احكام الحج ـ ١١ ـ الفتاوى الواضحة ـ ١٢ ـ دروس في علم الأصول ـ ١٣ ـ

بحث حول الولاية ـ ١٤ ـ بحث حول المهدي، . . . . وغيرها من الدراسات والابحاث القيّمة التي ازدانت بها المكتبة الإسلامية.

وعلى صعيد آخر، يلاحظ أن السيد الصّدر كان مما امتاز به إضافةً لعلمه الجم وفكره الثاقب النيّر هو زهده في هذه الحياة الفانية وتفانيه في سبيل المبدأ الحقّ، وأخلاقه، وتضحياته وجهاده. . . إلى أن التحق رضوان الله عليه بركب الشهداء والصّديقين وحَسنَ اولئك رفيقاً بتاريخ التاسع من شهر نيسان عام ١٩٨٠م.

الفصل الأوّل

صفحات من فضائل الإمام علي عليه السلام

صفحات من فضائل الإمام علي عليه السلام

لم يعرف المسلمون في تاريخهم المديد شخصاً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمع من الفضائل والمكارم ما تضيق به المجلَّدات ولا تَتَّسع له الموسوعات مثل علي بن أبي طالب، فقد تواترت الأحاديث بفضله، وأُلِّفت الكتب في سيرته، وشهد بذلك الصحابة والتابعون وأئمة الفقه والمذاهب.

واستكثر أحد المسلمين فضائل عليٍّ، فتوجَّه بأفكاره وتساؤلاته نحو حبر الأمَّة ابن عبَّاس، ابن عمّ الرسول، وأحد صحابته، فقال له: ما أكثر فضائل علي بن أبي طالب، وإنّي لأظنّها ثلاثة آلاف. فأجابه حبر الأمَّة بلهجة الواثق بفضل الإمام: هي إلى الثلاثين ألف أقرب من ثلاثة آلاف، ثم أكمل حديثه قائلاً:

لو أنَّ الشَّجر أقلام، والبحر مداد، والانس والجنّ كتَّـاب وحسّـاب، مـا أحصـوا فضـائـل أميـر المؤمنين عليه السلام[١]

وكيف تُحصى فضائل شخصٍ كان أوّل النَّاس ايماناً برسول الله صلى الله عليه وآله وتصديقاً بدعوته، وكانت له اليد الطّولى في الجهاد في سبيل الله بين يدي الرسول، وكانت راية الرسول في يده في الحروب والمشاهد كلّها،... واستمَّر على خطّ الرّسول ونهجه حتّى النَّفس الأخير.

فحياة أمير المؤمنين ابتداءً من ولادته في الكعبة بيت الله الحرام وانتهاءً بسقوطه شهيداً في محراب مسجد الكوفة، سلسلةٌ من الفضائل والمكارم.

ويتحدّث أحمد بن حنبل ـ إمام المذهب ـ عن عليٍّ فيقول: «ما جاء لأحدٍ من الفضائل ما جاء لعليٍّ»[٢]، ويجزم النّسائي والكثير من المحدّثين بالقول: «لم يرد في حقّ أحد

(١) أئمتنا: ١/٣٣ عن تذكرة الخواص: ٨.
(٢) وعّاظ السّلاطين: ١٨٤، عن الصّواعق المحرقة لابن حجر: ٧٢.

من الصَّحابة بالأسانيد الحسان أكثر ممَّا جاء في علي»[١] وفي هذه الصَّفحات القليلة، نسجِّل شذرات، وقبسات من فضائل أمير المؤمنين، لتكون مدخلاً وتوطئة لبحوث الشهيد السيد الصَّدر رحمه الله حول علي عليه السلام.

* * *

* الولادة والنَّسب:

ولد الإمام علي عليه السلام في بيت الله الحرام، في الثالث عشر من رجب، وتلك ميزة اختصّه الرحمان بها، وكأنّها اشعار بأنَّ هذا الوليد العظيم سيكون له أعظم الدَّور في مآزرة الرسول على تحطيم الأصنام ونشر دين الله...

وفي ولادته هذه يقول الشَّاعر الحميري:

ولدته في حرم الإله وأمنه ... والبيت حيث فناؤه والمسجد
بيضاء طاهرة الثياب نقيَّة ... طابت وطاب وليدها والمولد

---

(١) المصدر نفسه.

ما لفَّ في خرق القوابل مثله إلاّ ابن آمنة، النبيُّ محمَّدُ

أمَّا، أبوه، فأبو طالب مؤمن قريش وشيخ الأباطح، أحد كبار زعماء مكَّة، تلك الزَّعامة قامت على الفضائل والمكارم، ولم تقم على الأموال والتِّجارة والتَّسلّط.

كفل أبو طالب الرسول صغيراً، وحماه ونصره وآمن به نبيّاً، وتحمَّل الأذى من قريش في سبيله، وقريش ما كانت تطمع بالنَّيل من رسول الله وفي أبي طالب عرق ينبض...، ولما توفّي أبو طالب، هاجر الرسول إلى المدينة بعد فقد النَّاصر الكبير.

ويوصي أبو طالب بنيه بنصر الرَّسول والدفاع عنه، ومرَّة ينظر إلى الرسول يصلّي وخلفه عليّ، فيأمر جعفراً ولده بالصلاة خلف الرسول، وتترقرق عيناه بالدّموع إزاء هذا المشهد العظيم وينشد:

إنَّ عليّاً وجعفراً ثقتي عند ملم الخطوب والنّوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمّكما أخي لأميّ من بينهم وأبي

والله لا أخـــذل النبـــيّ ولا يخذله من بَنِيَّ ذو حسب[١]

ووالدة أمير المؤمنين هي فاطمة بنت أسد، المرأة الصّالحة التي رعت رسول الله يتيماً في بيتها، وآمنت به وهاجرت إلى المدينة حيث وافاها أمر الله...

* * *

* إسلامه:

أجمع المؤرخون على أنَّ عليّاً أوّل من أسلم وآمن برسول الله، ويتحدّث الإمام عن ذلك فيقول: أنا أوّل من صدَّقه[٢]. ويتحدّث أحد الأشخاص عن قصّة له فيقول: رأيت شابّاً يصلّي، ثمّ جاء غلام فقام عن يمينه، ثمّ جاءت امرأة فقامت خلفهما، فقلت للعبّاس بن عبد المطّلب: هذا أمرٌ عظيم.

فقال: ويحك هذا محمّد، وهذا علي، وهذه

---

(١) أبطال الهاشمين: ٨٧ عن شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٣/ ٢٦٩.

(٢) نهج البلاغة: ١/ ١١٥.

خديجة، إنَّ ابن أخي هذا حدّثني أنّ ربّه ربَّ السّماوات والأرض أمر بهذا الدين، والله ما على ظهر الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة[١].

* * *

* أخو الرسول ووصيّه:

يذكر الطبري في تاريخه، والنسائي وغيرهما من المؤرخين والمحدّثين والرواة، أنّه لمّا نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، دعا رسول الله وعشيرته من بني هاشم، وقال: أني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟

فأحجم القوم جميعاً إلاّ علياً، فإنّه قال: أنا يا نبي الله، حينئذٍ قال النبيّ: «هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فأسمعوا له وأطيعوا»[٢].

---

(١) المصدر: ١/ ٢٩، ومناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٥٠.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعيّة، حسن الأمين: ١/ ١٢١.

* عليٌّ يفدي رسول الله:

لازم عليٌّ رسول الله، ينهل من معين علمه، ويتخلَّق بخلقه، ويعينه وينصره، حتَّى كانت وفاة أبي طالب، غير أنَّ الله شاء أن يهدي أهل يثرب، فوفد قسم منهم على النبي، وأسلموا، وعادوا إلى ديارهم يبشرون بالدين الحنيف وتعاهدوا وتعاقدوا على نصرة الرسول والدفاع عنه.

وتناهى الخبر إلى أسماع زعماء مكَّة وشيوخها، فتعتمل في نفوسهم الهواجس والأفكار والأحقاد، فمحمد ﷺ إن هاجر إلى المدينة سيصبح سيّداً وزعيماً وربما يهّدد طريق قوافلهم التجارية التي تمرُّ عليه...، فبحثوا وتناقشوا وقلّبوا وجوه الرأي، وأخيراً قرَّ القرار على قتل الرسول غيلةً.

ويختار المتآمرون من كلّ قبيلة رجلاً قويّاً، ليضربوا الرسول ويقتلوه، فيضيع دمه بين قبائل قريش وبطونها، فلا يجرؤ بنو هاشم على المطالبة بدمه.

* * *

وهنا يقرُّ قرار الرسول على الهجرة إلى يثرب فيتوجَّه ليلاً، بعد أن يطلب من عليٍّ أن يبيت في فراشه ويلتحف ببردته.

وتتجلَّى عظمة عليٍّ، فهو لا يسأل رسول الله عن مصيره هو، وإنَّما يتفهم عن مصير الرسول فيقول: أوَ تسلم يا رسول الله؟...

ويبيتُ علي في فراش الرَّسول معرّضاً نفسه للشهادة، وعيون الأعداء ساهرة خارج البيت ينظرون من طرفٍ خفيّ إلى الداخل ويظنّون أنَّ محمداً نائم في فراشه، ولولا ذاك لخرجوا مسرعين وتعقبوه في الأزقَّة والطرقات والصَّحاري...

وحين هدأت الأصوات ونامت العيون، وانتصف اللَّيل، هجم المشركون يحدوهم الأمل بالخلاص من رسول الله الذي حطَّم كبرياءهم وأذلَّ جبروتهم، وسفَّه آلهتهم، فيفاجؤون في اللَّحظة الحاسمة بعليّ في بردة الرسول وعلى فراشه...! وهكذا فدى عليّ رسول الله بنفسه، ووقاه

وعرّض حياته للموت كي تستمر مسيرة الرسالة ويكمل الرّسول الطّريق.

ويبقى عليّ في مكّة يسلّم ودائع الرسول ﷺ لأهلها، ويقضي عداته ووصاياه، ويخرج نحو المدينة ليلحق برسول الله ومعه بضع نساء فيهنّ فاطمة بنت الرسول، وأمّه فاطمة بنت أسد وسواهنّ، فيدركه طلب المشركين، الذين دنوا من النسوة ورواحلهنّ، فيشدّ عليهم عليٌّ، وهو يقول:

خلّوا سبيل الجاهد المجاهد   آليت لا أعبد غير الواحد

ويصرع أحدهم، فينكشفون عنه، ويناديهم بصوت الشّجاع الواثق قائلاً: انني منطلق إلى ابن عمي رسول الله بيثرب، فمن سرّه أن أفري لحمه وأهرق دمه، فليتبعني، أو فليدن مني... وسار بتؤدة وهدوء، ومعه النسوة حتّى وصل إلى المدينة حين كان رسول الله بانتظاره...

* * *

* عليٌّ والجهاد:

حين يذكر أمير المؤمنين، تتبادر إلى الأذهان مواقفه البطولية أيّام بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين. . .، يتبادر إلى الأذهان ذكر سيفه الشهير ذي الفقار. . .، ذكر الفرسان والزعماء الذين جندلهم بسيفه حتّى قيل فيه: إذا اعتلى قدَّ ـ والقدّ القطع بالطول ـ وإذا اعترض قطَّ ـ والقط القطع بالعرض ـ .

ومن أخباره في يوم بدر، مبارزته للوليد بن عتبة أحد زعماء قريش وابن زعيمها، وقتله، وقتله حنظلة بن أبي سفيان شقيق معاوية، وقتله العاص بن سعيد بن العاص، وحفيده هو عمرو بن سعيد بن العاص عامل يزيد على المدينة غداة كربلاء، وحين سمع بمصرع الحسين ضحك وانشرحت أساريره وأنشد الشّعر شامتاً! . .

ويروي بعض المؤرخين أنَّ بني مخزوم قوم أبي جهل لما رأوا كثرة من قتل، أحدقوا بأبي جهل وأحاطوا به

يحمونه، ثمّ ألبسوا لامته عبد الله بن المنذر، فقتله علي وهو يظنه أبا جهل، ثمّ ألبسوها حرملة بن عمرو فصمد له علي وقتله...

وبمقتل شجعان مكّة وزعمائها تضعضعت معنويّات المشركين فهزموا لا يلوون على شيء، وسيوف عليٍّ والمسلمين تلاحقهم...، هذا وعليٌّ لم يكن قد تجاوز العشرين من العمر يوم بدر.

وفي يوم أحد، يروي أصحاب السّير والتّواريخ، أنَّ لواء المشركين كان عند بني عبد الدّار، وكان من عادة العرب أن يبرز حامل اللّواء يطلب القتال والمبارزة؛ فبرز طلحة بن أبي طلحة يدعو المسلمين إلى المبارزة فأحجموا سوى علي، الذي بارزه وقتله، وتوالى على حمل اللواء تسعة من بني عبد الدار يقتلهم الإمام عليه السلام واحداً تلو الآخر، حتّى حملت اللّواء امرأة وضمّته[1].

وحمل المسلمون على المشركين الذين خابت آمالهم

(١) دائرة المعارف، الأمين: ١/ ١٢٣ عن تاريخ الطبري، وابن الأثير.

بعد سقوط فرسانهم وحملة ألويتهم، ودارت المعركة فانهزم المشركون...، وشغل المسلمون بأخذ الغنائم، فأتاهم المشركون من خلفهم بعد مغادرة الرماة الذين وضعهم رسول الله في الخلف وأمرهم بعدم مغادرة أماكنهم، ودارت الدائرة على المسلمين وهزموا سوى عدّة نفر، وخلفوا رسول الله وحيداً!.

وبقي عليٌ صامداً مع رسول الله يقيه بنفسه ويمنعه من المشركين المتكالبين على قتله، وثاب إلى رسول الله المسلمون وعادوا بعد حين لنصرته بعد أن كانوا قد تفرّقوا هاربين.

وبعد أحد سرّ المشركون بانجازهم، غير أنّهم أخذوا يعدّون العدّة لما هو أكبر من ذلك، أخذوا يمنّون نفوسهم بمهاجمة يثرب وقتل الرسول والقضاء على الإسلام.

فسيّر أبو سفيان نحو عشرة آلاف مقاتلٍ لغزو المدينة وتآمر مع اليهود المحيطين بيثرب، واتّفق معهم على نقض

عهودهم مع الرسول ﷺ، فأصبح المسلمون بين همّ المشركين وهمّ اليهود.

وتناهى الخبر إلى المسلمين، فاستشار رسول الله أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق، وهكذا كان.

ووصل الجيش الغازي إلى المدينة وهناك فوجىء بالخندق، فضربوا الحصار حوله.

وعلى حين غفلةٍ من المسلمين عبر أحد كبار فرسان المشركين وهو عمرو بن عبد ود الخندق ومعه مجموعة من المشركين، عبروا في ثغرة من الخندق، وبادر الإمام علي عليه السلام فرابط عند الثغرة التي عبر منها الفرسان ليمنع من يريد العبور ويسد الثغرة.

أما عمرو بن عبد ود، فارس قريش، الذي كانت تعده العرب بألف فارس، فقد حوّل بصره نحو المسلمين، ونادى: من يبارز؟ فلم يقم أحدٌ سوى علي، فأجلسه رسول الله، وأخذ عمرو يعيد طلبه وما من أحد يجرؤ على القيام

سوى أمير المؤمنين، ثم إن عمراً أخذ يجبّن المسلمين، ويناديهم: أين جنّتكم التي تزعمون؟ وبعدها أخذ يرتجز ويقول:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟
ووقفت إذ جبن المشجع موقف البطل المناجز

عند ذلك قام علي، فأذن له الرسول ﷺ، وهو يقول: «برز الإيمان كلّه إلى الشّرك كلّه»؛ وذلك القول خير دليلٍ على أهميّة ذلك الموقف، فانتصار عمرو سيؤدّي حتماً إلى انتصار المشركين الذين لن يألوا جُهداً في القضاء على الإسلام؛ ومقتله سيؤدي إلى تضعضع المشركين وهزيمتهم.

وعلى أي حال، مشى علي نحو عمرٍ وهو يقول:

لا تعجلنّ فقد أتا ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيّة وبصيرة والصدق منجي كلّ فائز
إنّي لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

وكانت المبارزة فقتله عليٌّ عليه السلام وجاء برأسه، فاستقبله رسول الله وهو يقول: ضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين.

وكان الإمام علي عليه السلام يقول:

أرديت عمراً إذ طغى بمهنّدٍ صافي الحديد مجرّب قضّاب
نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصرت ربّ محمّد بصوابي
فصدرت حين تركته متجدّلاً كالجذع بين دكادكٍ وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني كنت المقطر بزّني أثوابي
لا تحسبنَّ الله خاذل دينه ونبيّه يا معشرَ الاحزاب

وبمقتل عمرٍ دبّ الذعر في قلوب المشركين، وكانت العواصف قد هاجت، فولّوا مدبرين نحو مكّة...

وفي ضربة علي هذه يقول الشّاعر الأزري في رائعته:

يا لها ضربة حوت مكرمات لم يزن ثِقْل أجرها ثَقَلاها
هذه من علاه إحدى المعالي وعلى هذه فقس ما سواها

وفي يوم خيبر، أرسل رسول الله عدّة أمراء للجيش

فقفلوا راجعين وقد كان من هؤلاء الأمراء أبو بكر وعمر على ما يذكر الطَّبري؛ وهنا قال رسول الله: **لأعطينَّ الرَّاية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرَّار غير فرَّار، لا يرجع حتَّى يفتح الله على يديه.** فأخذ كلّ واحدٍ من المسلمين يتمنى أن يكون صاحب الراية بعد هذا الوصف من رسول الله ﷺ.

ولمّا أصبح الصباح، دعا الرسول علياً، وكان يشتكي رمداً في عينيه فمسحهما ودعا له، وأعطاه الراية.

وبرز من اليهود بطلٌ لهم مقدام يسمَّى مرحباً، فقتله أمير المؤمنين وحمل المسلمون على اليهود حتَّى أدخلوهم حصونهم، ثم دخلوها عليهم وكان الفتح...

ولعليٍّ مواقف مشهودة يوم فتح مكَّة حيث كان حامل لواء رسول الله، وقد رفعه الرسول بنفسه حتَّى حطَّم الأصنام عن ظهر الكعبة.

وبعد فتح مكَّة، كانت وقعة حنين حيث اجتمعت بعض القبائل المشركة لقتال رسول الله، فخرج النبي لردّ

هجومهم، وكانوا كمنوا في شعابٍ لهم، وهاجموا المسلمين وحصروهم حتَّى لم يبق مع رسول الله سوى بضعة نفر، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين.

ثم قتل الإمام علي عليه السلام حامل رايتهم أبي جرول، وسقطت الراية على الأرض، فكان ذلك مقدّمة لهزيمة المشركين...

* * *

* عليٌّ والعبادة:

الحديث عن عبادة الإمام عليه السلام مستفيض ومتواتر، ونحن إذ نذكر العبادة فإنما نتطرق إلى الصلاة والصيام وغيرهما...، أمّا إذا أردنا العبادة بمفهومها الأشمل، فحياة علي كلّها عبادة، وهل الجهاد في سبيل الله سوى عبادة للخالق، وكذلك تعليم الناس وهداية الأمّة، والكفّ عن محارم الله والورع والتّقى...

يتحدّث الإمام عن سبقه لسائر النَّاس في العبادة فيقول: «**أسلمت قبل اسلام النَّاس وصلَّيت قبل صلاتهم**»(١).

ومن خير ما قيل في عبادة الإمام عليه السلام كلمة لابن أبي الحديد، شارح نهج البلاغة يقول: وما ظنَّك برجلٍ يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير فيصلّي عليه ورده، والسّهام تقع بين يديه فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتّى يفرغ من وظيفته، وما ظنّك برجلٍ كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده...(٢).

* * *

* عليٌّ والزّهد:

لم تكن الدنيا تساوي شيئاً في حساب علي عليه السلام، ولم يكن حطامها ليعدل عنده مقدار ذرة، كان زاهداً في كلّ ذلك. وفي احدى رسائله إلى بعض عماله، يوضح

(١) نهج البلاغة: ١/ ١٠.
(٢) المصدر نفسه.

الإمام عليه السلام سيرته وزهده ليقتدوا بها فيقول:

«ألاَ وإنَّ لكلِّ مأمومٍ إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإنَّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[١]، ومن طعمه بقرصيه...، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً[٢]، ولا ادّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددتُ لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذتُ منها إلاَّ كقوت أتانٍ دبرة[٣]، ولهي في عيني أوهى وأهون من عصفةٍ مقرة[٤]،... ولو شئت لاهتديت الطَّريق إلى مصفّى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلَّ بالحجاز أو باليمامة من لا طمع له في القرص[٥]، ولا عهد له بالشّبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطونٌ غرثى وأكبادٌ

(١) الطمر: الثوب الخلق.
(٢) التبر: الذهب.
(٣) أتان دبرة: أنثى الحمار التي عُقر ظهرها فقلَّ أكلها.
(٤) مقرة: مرّة.
(٥) القرص: الرغيف.

حرّى؟ أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داءً أن تبيت ببطنةٍ وحولك أكبادٌ تحنُّ إلى القدّ»[1][2]

ويروي الأحنف بن قيس ـ أحد زعماء البصرة ـ، يقول: دخلت عليه قبيل افطاره، فقال لي: قم فتعشَّ مع الحسن والحسين، ثمّ قام إلى الصلاة، فلما فرغ دعا بجرابٍ مختوم بخاتمه، فأخرج منه شعيراً مطحوناً ثم ختمه.

فقلت: يا أمير المؤمنين، لم أعهدك بخيلاً، فكيف ختمت على هذا الشَّعير؟

فقال: لم أختمه بخلاً، ولكن خفت أن يبسّه الحسن والحسين بسمن أو أهاله.

فقلت: أحرام؟

قال: لا، ولكن على أئمة الحقّ أن يتأسّوا بأضعف

---

(١) القد: الجلد الغير المدبوغ، وكان بعض العرب في الجاهلية لفقرهم يأكلونه، والمراد أنّ الفقر بلغ بهم إلى تمني الحصول على أيّ شيء يؤكل حتّى لو كان قدّاً.

(٢) نهج البلاغة/ دخيل: ٥٤٩.

رعيّتهم حالاً في الأكل واللّباس، ولا يتميّزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه، ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه، ويراهم الغنيّ فيزداد شكراً وتواضعاً[١].

* * *

* عليٌّ والصَّفح:

لم يحدّثنا التّاريخ عن رجل عفا عن أعدائه ومناوئيه وصفح عنهم مثل علي عليه السلام، ففي معركة الجمل، تلك المعركة الّتي أجّجها الحقد والتكالب على المال، ظفر أمير المؤمنين بأعدائه، فمنع جيشه عن التّعرض لأموال النّاس وممتلكاتهم وأنفسهم، ومنع جنده أن يمسّوا شيئاً من ذلك.

والتاريخ يحدّثنا عن آخرين وقفوا الموقف، نفسه، غير أن صنعهم كان مغايراً لصنيع الإمام عليه السلام، فقد أغار معاوية على بلاد الإمام فيما بعد وانتهب الأموال، وانتهك الاعراض، وسبى نساءً مسلمات! فكنّ أوّل مسلماتٍ سبين في التّاريخ.

---

(١) أئمتنا: ١/ ٣٦.

وفي معركة الجمل ذاتها، يظفر الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بأشدّ مناوئيه وقادة الفتن، كعبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص فيعفو عنهم. ويجهز عائشة التي ما فتئت تحرّض النّاس عليه وتقود الجيوش لحربه، يجهزها بخير جهاز ويرجعها مع نسوةٍ إلى المدينة.

وفي يوم صفين، والحرب على أشدّها بين جيشي الحقّ والباطل، يظفر الإمام بعمرو بن العاص، وهو عمدة عسكر معاوية، والداهية المنافق الذي ما فتىء يحرّض النّاس عليه، ويلتفت عمرو فيرى سيف عليٍّ أمامه، ذلك السّيف الذي أذلّ الرّقاب، وحطّم الرؤوس، فيرتجف وتأخذه الرعدة ويبادر إلى كشف سوأته، فيعرض عنها الإمام ويتركه ينجو بحياته...

* * *

* عليٌّ والفصاحة:

لعلّ الفصاحة والبلاغة من أبرز الصّفات الملازمة لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فخطبه وحكمه ورسائله التي حفظ التّاريخ

يسيراً منها خير شاهد على ما نقوله في هذا المجال. والعرب كانوا يطلبون من ابنائهم حفظ القرآن الكريم وخطب الإمام عليه السلام وكلامه كي تستقيم ألسنتهم على فصيح العربيّة.

ونهج البلاغة هو ممّا اختاره الشريف الرضي ـ أحد علماء القرن الرابع الهجري وأدبائه ـ من كلام الإمام عليه السلام وخطبه ورسائله.

وقد تعددت شروحه حتّى بلغت المئات، وزيّن الكتاب والخطباء كلامهم بمقتطفات منه.

ويأتي أحد المتملّقين إلى معاوية بن أبي سفيان ليقول له: جئتك من عند أعيى النّاس ـ ويقصد الإمام علياً عليه السلام ـ، فيستخف معاوية بالقائل رغم عداوته الشديدة للإمام عليه السلام، ويقول له: ويحك، وكيف يكون أعيى النّاس، فوالله ما سنَّ الفصاحة لقريشٍ غيره[1].

ويقول عبد الحميد الكاتب وهو من مشاهير الكتاب

(١) شرح نهج البلاغة: ١/٨.

في العصر العباسي: حفظت سبعين خطبةً من خطب الأصلع ـ يعني الإمام عليه السلام ـ ففاضت ثمَّ فاضت[١].

وبعد هذا وذاك، لا شك بأنَّ خلود خطب الإمام عليه السلام وكلماته ورغم كثرة مناوئيه لم يجرؤ أحدهم على ذكرها بسوءٍ أو عيب في فصاحة أو بلاغة، لا شك بأنَّ ذلك خير دليل، على فصاحة الإمام عليه السلام وعلمه.

* * *

* عليٌّ والعلم:

لازم الإمام عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله ينهل من معين علمه الذي لا ينضب، حتَّى قال: علَّمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف بابٍ من العلم، يُفتح لي من كلّ بابٍ ألف باب[٢].

ويحدّثنا التَّاريخ عن قضايا وأحكام لأمير المؤمنين، فاق بها كلّ الصَّحابة، حتَّى كانوا يلجؤون إليه في المهمَّات والمعضلات؛ وأقوال الخليفة الثاني عمر في ذلك صريحة

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) أئمتنا: ١/ ٣٨.

إذ يقول: أعوذ بالله من معضلةٍ ليس لها أبو الحسن علي، ولولا عليٌّ لهلك عمر... وعليٌّ هو القائل على رؤوس الأشهاد: سلوني قبل أن تفقدوني، وليس هذا بكثير على من تربّى في حجر النبيّ، ونشأ في رعاية الرسول ﷺ...

* * *

* عليٌّ والسخاء:

تتجلّى عظمة علي عليه السلام في سخائه، مع قلّة ذات يده، ومن أسخى وأكرم ممّن يجود بطعامه في سبيل الله لثلاثة أيام، يقضيها طاوياً مع أهله وبنيه... ويثمن القرآن هذا السخاء بآياتٍ بيّنات نزلت في عليّ وأهله:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان ٨ ـ ٩].

مرّة كان يصلي في مسجد رسول الله فأتى سائل، وسأل أهل المسجد دون أن يحصل على ما يسدّ به رمقه، وكان عليٌّ يُصلّي فأشار إليه أن يأخذ خاتمه من يده، وهو

راكع، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾.

وذكر الشعبي عليّاً فقال: كان أسخى النّاس[١].

هذا إذا أردنا السّخاء إنفاق الأموال في سبيل الله، أمّا الواقع فإنَّ السخاء هو السخاء بالروح والنفس في سبيل المبدأ والعقيدة؛ وكم من مرّة سخى عليٌّ بنفسه في سبيل الحق، كمبيته على فراش الرسول يفديه بنفسه، ومشاركته البارزة في جميع معارك الإسلام وحروبه، حتّى قضى شهيداً في مسجد الكوفة، وكما قال الشاعر:

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

* * *

*** خاتمة:**

هذه إلمامة واطلالة سريعة على فضائل الإمام عليه السلام، وغيض من فيض مكارمه، وأنّى تحصى

---

(١) أئمتنا: ١/٣٧، عن شرح النهج: ١/٧.

فضائل أمير المؤمنين، التي شغلت المحدّثين والرواة، وسارت بها الركبان...

وفضائل الإمام على ما قيل، كتمها أعداؤه حقداً وطمعاً في صلات الأمويين والحكام ومن لفَّ لفَّهم، كما كتمها أولياؤه وأحبّاؤه خوفاً وفرقاً من الحكّام، وظهر منها ما ملأ الخافقين...

فسلام عليه يوم ولد في بيت الله الحرام، وانتقل إلى جوار ربه في بيت الله.. في مسجد الكوفة...

وندعوك، قارئي الكريم، للدخول في رحاب بطل الإسلام، أمير المؤمنين، علي عليه السلام، والتعرّف على سيرته، الوضّاءة من خلال ما كتبه علمٌ من أعلام المسلمين الخالدين، وعبقري من عباقرته المبرّزين، وشهيد من شهداء الإسلام المجاهدين.

أحمد دخيّل

* * *

الفصل الثاني

سيرة علي (ع) بعد رحيل الرسول(ص)

* عليٌّ بعد وفاة الرَّسول (ص)
* بعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين(ع)
* أشأم ليلة

علي بعد وفاة الرسول ﷺ

حينما توفي رسول الله ﷺ خلَّف أمة ومجتمعاً ودولة.

وأقصد بالأمة المجموعة من المسلمين الذين كانوا يؤمنون برسالته ويعتقدون بنبوته، وأقصد بالمجتمع تلك المجموعة من الناس التي كانت تمارس حياتها على أساس تلك الرسالة وتنشيء علاقاتها على أساس التنظيم المقرر لهذه الرسالة، وأقصد بالدولة القيادة التي كانت تتولى تزعم التجربة في ذلك المجتمع، والاشتغال على تطبيق الإسلام وحمايته مما يهدده من أخطار وانحراف.

هذه الأمة بحكم أن الانحراف قصَّر عمر التجربة، وبحكم أن الانحراف زوّر معالم الإسلام، بحكم هذين

السببين الكمي والكيفي، الأمة غير مستوعبة، الأمة تتحصَّن بالطاقات التي تمنعها وتحفظها عن الانهيار أمام الكافرين وأمام ثقافات الكافرين، فتتنازل بالتدريج، عن عقيدتها، عن آدابها، عن أهدافها، وعن أحكامها.

في مقابل هذا المنطق وقف الأئمة عليهم السلام على خطين:

الخط الأول: هو خط محاولة تسلم زمام التجربة، زمام الدولة، محو آثار الانحراف، إرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي لأجل أن تكتمل العناصر الثلاثة: الأمة والمجتمع والدولة.

الخط الثاني: الذي عمل عليه الأئمة عليهم السلام، هو خط تحصين الأمة ضد الانهيار، بعد سقوط التجربة وإعطائها من المقومات، القدر الكافي، لكي تبقى وتقف على قدميها، وتعيش المحنة بعد سقوط التجربة، بقدم راسخة وبروح مجاهدة، وبإيمان ثابت.

والآن، نريد أن نتبين هذين الخطين في حياة أمير

المؤمنين عليه السلام، مع استلال العبر في المشي على هذين الخطين.

على الخط الأول، خط محاولة تصحيح الانحراف وإرجاع الوضع الاجتماعي والدولي في الأمة الإسلامية إلى خطه الطبيعي، في هذا الخط، عمل عليه السلام حتى قيل عن علي عليه السلام أنه أشد الناس رغبة في الحكم والولاية، إتّهمه معاوية بن أبي سفيان، بأنه طالب جاه، وأنه طالب سلطان.

اتهمه بالحقد على أبي بكر وعمر، اتهمه بكل ما يمكن أن يتهم الشخص المطالب بالجاه وبالسلطان وبالزعامة.

أمير المؤمنين عليه السلام عمل على هذا الخط خط تسلم زمام الحكم، وتفتيت هذا الانحراف، وكسب الزعامة زعامة التجربة الإسلامية إلى شخصه الكريم، بدأ هذا العمل عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة، حيث حاول إيجاد تعبئة وتوعية فكرية عامة في صفوف المؤمنين.

لم يكن يفهم من علي عليه السلام إلاّ أن له حقاً شخصياً يطالب به، وهو مقصر في مطالبته، إلا أن المسألة لم تقف عند هذا الحد، فضاقت القصة على أمير المؤمنين عليه السلام من هذه الناحية، ومع أننا نجد في مراحل متأخرة من حياة أمير المؤمنين عليه السلام المظاهر الأخرى لعمله على هذا الخط، لمحاولة تسلمه أو سعيه في سبيل تسلم زعامة التجربة الإسلامية وتفادي الانحراف الذي وقع، إلاَّ أنَّ الشيء الذي هو في غاية الوضوح من حياة أمير المؤمنين عليه السلام ، أنه عليه السلام في عمله في سبيل تزعم التجربة، وفي سبيل محاربة الانحراف القائم ومواجهته بالقول الحق وبالعمل الحق، وبشرعية حقه في هذا المجال، كان يواجه مشكلة كبيرة جداً، وقد استطاع أن ينتصر على هذه المشكلة انتصاراً كبيراً جداً أيضاً.

هذه المشكلة التي كان يواجهها هي مشكلة الوجه الظاهري لهذا العمل والوجه الواقعي لهذا العمل.

قد يتبادر إلى ذهن الإنسان الاعتيادي لأول مرة إن

العمل في سبيل معارضة زعامة العصر، والعمل في سبيل كسب هذه الزعامة، أنه عمل في إطار فكري، أنه عمل يعبّر عن شعور هذا العامل بوجوده، وفي مصالحه، وفي مكاسبه، وبأبعاد شخصيته، هذا هو التفسير التلقائي الذي يتبادر إلى الأذهان، من عمل يتمثل فيه الإصرار على معارضيه في زعامة العصر على كسب هذه الزعامة، وقد حاول معاوية كما أشرنا أن يستغل هذه البداهة التقليدية في مثل هذا الموقف من أمير المؤمنين عليه السلام.

إلاّ أن الوجه الواقعي لهذا العمل من قبل الإمام عليه السلام لم يكن هذا، الوجه الواقعي هو أن علياً كان يمثل الرسالة وكان هو الأمين الأول من قِبَلِ رسول الله صلى الله عليه وآله على التجربة على استقامتها وصلابتها، وعدم تميعها على الخط الطويل، الذي سوف يعيشه الإسلام والمسلمون بعد النبي صلى الله عليه وآله. فالعمل كان بروح الرسالة ولم يكن بروحه هو، كان عملاً بروح تلك الأهداف الكبيرة، ولم يكن عملاً بروح المصلحة الشخصية، لم يكن يريد أن يبني زعامة لنفسه، وإنما كان يريد أن يبني زعامة الإسلام وقيادة

الإسلام في المجتمع الإسلامي، وبالتالي في مجموع البشرية على وجه الأرض.

هذان وجهان مختلفان، قد يتعارضان في العامل نفسه، وقد يتعارضان في نفس الأشخاص الآخرين، الذين يريدون أن يفسروا عمل هذا العامل.

هذا العامل قد يتراءى له في لحظة أنه يريد أن يبني زعامة الإسلام لا زعامة نفسه، إلاّ أنه خلال العمل، إذا لم يكن مزوداً بوعي كامل، إذا لم يكن مزوداً بإرادة قوية، إذا لم يكن قد استحضر في كل لحظاته وآنات حياته، إنه يعيش هذه الرسالة ولا يعيش نفسه، إذا لم يكن هكذا، فسوف يحصل في نفسه ولو لا شعورياً انفصام بين الوجه الظاهري للعمل وبين الوجه الحقيقي للعمل، وبمثل هذا الانفصام سوف تضيع أمامه كل الأهداف أو جزء كبير من تلك الأهداف سوف ينسى أنه لا يعمل لنفسه بل هو يعمل لتلك الرسالة سوف ينسى أنه ملك غيره وأنه ليس ملكاً لنفسه.

كل شخص يحمل هذه الأهداف الكبيرة، يواجه خطر

الضياع في نفسه، وخطر أن تنتصر أنانيته على هذه الأهداف الكبيرة، فيسقط في أثناء الخط، يسقط في وسط الطريق، وهذا ما كان علي عليه السلام معه على طرفي نقيض.

علي عليه السلام كان يصرّ دائماً على أن يكون زعيماً، يصرّ دائماً على أن يكون هو الأحق بالزعامة، علي الذي يتألم، الذي يتحسّر أنه لم يصبح زعيماً بعد محمد صلى الله عليه وآله، الذي يقول: (**لقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى**)، في غمرة هذا الألم، في غمرة هذه الحساسية، يجب أن لا ننسى أنَّ هذا الألم ليس لنفسه، أنَّ هذه الحساسية ليست لنفسه، أنَّ كل هذا العمل وكل هذا الجهد، ليس لأجل نفسه بل من أجل الإسلام. وكذلك كان يربي أصحابه على أنهم أصحاب تلك الأهداف الكبيرة، لا أصحاب زعامته وشخصه، وقد انتصر علي عليه السلام انتصاراً عظيماً في كلتا الناحيتين.

انتصر علي على نفسه، وانتصر في إعطاء عمله إطاره الرسالي وطابعه العقائدي انتصاراً كبيراً.

علي ربى أصحابه على أنهم أصحاب الأهداف لا أصحاب نفسه، كان يدعو إلى أن الإنسان يجب أن يكون صاحب الحق، قبل أن يكون صاحب شخص بعينه. علي هو الذي قال: «**اعرف الحق تعرف أهله**»، كان يربي أصحابه، يربي عمّاراً وأبا ذرّ والمقداد: على أنكم اعرفوا الحق.. ثم احكموا على علي في إطار الحق. وهذا غاية ما يمكن أن يقدمه الزعيم من إخلاص في سبيل أهدافه. أن يؤكد دائماً لأصحابه وأعوانه ـ وهذا مما يجب على كل المخلصين ـ أن المقياس هو الحق وليس هو الشخص. إن المقياس هو الأهداف وليس هو الفرد.

هل يوجد هناك شخص أعظم من علي بن أبي طالب، لا يوجد هناك أعظم من علي إلاَّ أستاذه، لكن مع هذا جعل المقياس هو الحق لا نفسه.

لما جاءه ذلك الشخص وسأله عن الحق في حرب الجمل هل هو مع هذا الجيش أو مع ذلك الجيش، كان يعيش في حالة تردد بين عائشة وعلي، يريد أن يوازن بين

عائشة وعلي، أيهما أفضل حتى يحكم بأنه هو مع الحق أو عائشة. جهودها للإسلام أفضل أو جهود علي أفضل، قال له: **اعرف الحق تعرف أهله.**

علي كان دائماً مصرّاً على أن يعطي العمل الشخصي طابعه الرسالي، لا طابع المكاسب الشخصية بالنسبة إليه، وهذا هو الذي يفسّر لنا كيف أن علياً عليه السلام، بعد أن فشل في تعبئته الفكرية عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يعارض أبا بكر وعمر معارضة واضحة سافرة طيلة حياة أبي بكر وعمر، وذلك أن أول موقف اعتزل فيه علي طريقته السابقة كان عقيب وفاة عمر، يوم الشورى حينما خالف أبا بكر وعمر، هذا عندما حاول عبد الرحمن بن عوف حينما اقترح عليه المبايعة أن يبايعه على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين، قال علي عليه السلام: بل على كتاب الله وسنة نبيه واجتهادي. هنا فقط أعلن عن معارضة أبي بكر وعمر، في حياة أبي بكر وعمر بعد تلك التعبئة، لم يبد موقفاً إيجابياً واضحاً في معارضتهما، والوجه في هذا، هو أن علياً عليه السلام كان يريد أن تكون المعارضة في إطارها

الرسالي، وأن ينعكس هذا الإطار على المسلمين، أن يفهموا أن المعارضة ليست لنفسه، وإنما هي للرسالة، وحيث إن الانحراف لم يكن قد تعمق بعد والمسلمون القصيرو النظر، الذين قدموا غيره عليه، هؤلاء المسلمون القصيرو النظر لم يكونوا يستطيعون أن يعمقوا النظر إلى هذه الجذور، التي نشأت، فكان معنى مواصلة المعارضة بشكل جديد أن يفسر من أكثر المسلمين، بأنه عمل شخصي، وأنها منافسة شخصية.

علي بن أبي طالب عليه السلام بعد أن تمَّ الأمر لعثمان، بعد أن بويع عثمان يوم الشورى، قال: إني سوف أسكت ما سلمت مصالح المسلمين وأمور المسلمين، وما دام الغبن عليَّ وحدي، وما دمت أنا المظلوم وحدي، وما دام حقي هو الضائع وحده. أنا سوف أسكت سوف أبايع سوف أطيع عثمان، هذا هو الشعار الذي أعطاه بصراحة مع أبي بكر وعمر وعثمان، وبهذا الشعار أصبح في عمله رسالياً، وانعكست هذه الرسالة على عهد أمير المؤمنين، وبقي عليه السلام ملتزماً بما تعهَّد به من السكوت إلى أن بدأ

الانحراف في حياة عثمان بشكل مفضوح، ولهذا أسفر علي عليه السلام عن المعارضة وواجه عثمان بما سوف نتحدث عنه بعد ذلك.

فعلي عليه السلام في محاولته لتسلم زمام التجربة وزعامة القضية الإسلامية كان يريد أن يوفق بين هذا الوجه الظاهري للعمل، وبين الوجه الواقعي للعمل، واستطاع أن يوفق بينهما توفيقاً كاملاً، استطاع هذا في توقيت العمل، واستطاع هذا في تربيته لأصحابه، على أنهم أصحاب الأهداف لا أصحاب الأشخاص، واستطاع في كل هذه الشعارات التي طرحها، أن يثبت أنه بالرغم من كونه في قمة الرغبة لأنه يصبح حاكماً، لم يكن مستعداً أبداً لأن يصبح حاكماً مع اختيار أي شرط من الشروط المطلوبة التي تنال من تلك الرسالة.

علي بن أبي طالب عليه السلام بالرغم من أنه كان في أشد ما يكون سعياً وراء الحكم، جاءه المسلمون بعد أن قتل عثمان، عرضوا عليه أن يكون حاكماً، قال لهم: بايعوا

غيري وأنا أكون كأحدكم، بل أكون أطوعكم لهذا الحاكم، الذي تبايعونه، ما سلمت أمور المسلمين في عدله وعمله، يقول ذلك، لأن الحقد الذي تواجهه الأمة الإسلامية كبير جداً، تتمادى بذرة الانحراف، الذي عاشه المسلمون بعد النبي ﷺ إلى أن قتل عثمان، هذا الانحراف الذي تعمق، الذي ارتفع، هذا الانحراف، الذي طغى والذي استكبر، الذي خلق تناقضات في الأمة الإسلامية، هذا عبء كبير جداً.

ماذا يريد أن يقول، يريد أن يقول: لأني أنا لا أقبل شيئاً إلاَّ على أن تصفّوا الانحراف، أنا لا أقبل الحكم الذي لا يصفّي هذا الانحراف لا الحكم الذي يصفّيه، هذه الإحجامات عن قبول الحكم في مثل هذه اللحظات كانت تؤكد الطابع الرسالي، بحرقته بلوعته، لألمه لرغبته أن يكون حاكماً، استطاع أن ينتصر على نفسه، ويعيش دائماً لأهدافه، واستطاع أن يربي أصحابه أيضاً على هذا المنوال.

هذا هو الخط الأول وهو خط محاولة تسلمه لزمام التجربة الإسلامية.

وأما على الخط الثاني:

وهو خط تحصين الأمة لقد كانت الأمة تواجه خطراً، وحاصل هذا الخطر هو أن العامل الكمي والعامل الكيفي، سوف يجعلان هذه الأمة لا تعيش الإسلام، إلاّ زمناً قصيراً.

بحكم العامل الكمي الذي سوف يسرع في إفناء التجربة ولن تعيش إلاّ مشوهة بحكم العامل الكيفي، الذي يتحكم في هذه التجربة، ولذا بدأ الإمام بتحصين الأمة، وبالتغلب على العاملين: العامل الكمي والعامل الكيفي.

أما التغلب على العامل الكمي فكان في محاولة تحطيم التجربة المنحرفة وتحجيمها وإفساح المجال للتجربة الإسلامية لتثبت جدارتها وذلك بأسلوبين:

الأسلوب الأول: هو التدخل الإيجابي الموجه في حياة هذه التجربة بلحاظ قيادتها.

القادة والزعماء الذين كانوا يتولون هذه التجربة، كانوا يواجهون قضايا كثيرة لا يحسنون مواجهتها، كان

يواجههم مشاكل كثيرة لا يحسنون حلّها، ولو حاولوا لوقعوا في أشد الأضرار والأخطار ولأوقعوا المسلمين في أشد التناقضات، ولأصبحت النتيجة محتومة أكثر، ولأصبحت التجربة أقرب إلى الموت، وأقرب إلى الفناء وأسرع إلى الهلاك، هنا كان يتدخل الإمام عليه السلام يتدخل تدخلاً إيجابياً، موجهاً في سبيل أن ينقذ التجربة من المزيد من الضياع ومن المزيد من الانحراف، ومن المزيد من السير في الضلال.

كلنا نعلم، بأن المشاكل العقائدية التي كانت تواجهه عليه السلام والزعامة السياسية بعد النبي صلى الله عليه وآله. هذه المشاكل العقائدية التي كان يثيرها، وتثيرها القضايا الأخرى التي بدأت تندرج في الأمة الإسلامية والأديان الأخرى التي بدأت تعاشر المسلمين، هذه المشاكل العقائدية لم تكن الزعامات السياسية وقتئذٍ على مستوى حلها، كان الإمام عليه السلام يعين تلك الزعامات في التغلب على تلك المشاكل العقائدية.

كلنا نعلم بأن الدولة الإسلامية واجهت في عهد عمر خطراً من أعظم الأخطار، خطر إقامة إقطاع لا نظير له في المجتمع الإسلامي، كان من المفروض أن يسرع في دمار الأمة الإسلامية، وذلك حينما وقع البحث بين المسلمين بعد فتح العراق، في أنه هل توزع أراضي العراق على المجاهدين المقاتلين، أو أنها تبقى ملكاً عاماً للمسلمين، وكان هناك اتجاه كبير بينهم إلى أن توزع الأراضي على المجاهدين الذين ذهبوا إلى العراق وفتحوا العراق، وكان معنى هذا أن يعطى جميع العالم الإسلامي، أي يعطى العراق، وسوريا، وإيران ومصر وجميع العالم الإسلامي الذي أسلم بالفتح سوف يوزع بين هؤلاء المسلمين المجاهدين، سوف تستقطع أراضي العالم الإسلامي لهؤلاء، وبالتالي يتشكل إقطاع لا نظير له في التاريخ.

هذا الخطر الذي كان يهدد الدولة الإسلامية، وبقي عمر لأجل ذلك أياماً متحيراً لأنه لا يعرف ماذا يصنع، لا يعرف ما هو الأصلح، وكيف يمكن أن يعالج هذه المشكلة.

علي بن أبي طالب عليه السلام هو الذي تدخل وحسم الخلاف، وبيّن وجهة النظر الإسلامية في الموضوع، وأخذ عمر بنظر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأنقذ بذلك الإسلام من الدمار الكبير.

وكذلك له تدخلات كبيرة وكثيرة، النفير العام الذي اقترح على عمر والذي كان يهدد العاصمة في غزو سافر، كان من الممكن أن يقضي على الدولة الإسلامية، هذا الاقتراح طرح على عمر، كاد عمر أن يأخذ به، جاء علي عليه السلام إلى المسجد مسرعاً على ما أتذكر في بعض الروايات تقول: جاء مسرعاً إلى عمر، قال له: لا تنفر نفيراً عاماً، كان عمر يريد أن يخرج مع تمام المسلمين الموجودين آنذاك في المدينة، وعندها تفرغ عاصمة الإسلام مما يحميها من غزو المشركين والكافرين، منعه من النفير العام.

وهكذا كان علي عليه السلام يتدخل تدخلاً إيجابياً موجهاً في سبيل أن يقاوم المزيد من الانحراف، والمزيد من

الضياع، كي يطيل عمر التجربة الإسلامية ويقاوم عامل الكم الذي ذكرناه.

هذا أحد أسلوبي مقاومة العامل الكمي.

الأسلوب الثاني: لمقاومة العامل الكمي كان هو المعارضة.

يعني كان تهديد الحكام ومنعهم من المزيد من الانحراف، لا عن سبيل التوجيه، وإنما عن سبيل المعارضة والتهديد.

في الأول كنا نفرض أن الحاكم فارغ دينياً، وكان يحتاج إلى توجيه، والإمام عليه السلام كان يأتي ويوجه، أما الأسلوب الثاني، فيكون الحاكم فيه منحرفاً ولا يقبل التوجيه، إذن فيحتاج إلى معارضة، يحتاج إلى حملة ضد الحاكم هذا، لأجل إيقافه عند حده، ولأجل منعه من المزيد من الانحراف.

وكانت هذه هي السياسة العامة للأئمة عليهم السلام.

لقد قاد المعارضة لعثمان، واستقطب آمال المسلمين ومشاعر المسلمين، واتجاهات المسلمين، نحو حكم صحيح، ولهذا كان هو المرشح الأساسي بعد أن فشل عثمان، واجتمع عليه المسلمون.

الإمام علي عليه السلام كان يتصدى للمعارضة لأجل أن يوقف الانحراف.

هذان أسلوبان كانا هما الأسلوبان المتبعان لمواجهة العامل الجديد.

ثم هذه المعارضة نفسها كانت تعبر من ناحية أخرى عن الخط الثاني، وهو المحافظة على الأمة الإسلامية من الانهيار بعد سقوط التجربة حيث أن المسلمين لم يعيشوا التجربة الصحيحة للإسلام، أو بعدوا عنها، والتوجيه وحده لا يكفي، لأن هذا العمل لا يكفي لأن يكسب مناعة. المناعة الحقيقية والحرارة الحقيقية للبقاء والصمود كأمة، إذن كان لا بدَّ من أن يحدد الموقف. من أن يحدد الوجه الحقيقي للإسلام، في سبيل الحفاظ على الإسلام، وهذا

الوجه الحقيقي للإسلام قدمه علي بن أبي طالب عليه السلام من خلال معارضته للزعامات المنحرفة أولاً، ومن خلال حكم الإمام بعد أن مارس الحكم بنفسه.

من خلال هذين العملين، ومن خلال العمل السياسي المتمثل في المعارضة، والعمل السياسي المتمثل في رئاسة الدولة بصورة مباشرة، قدم الوجه الحقيقي للإسلام، الأطروحة الصحيحة للحياة الإسلامية الأطروحة الخالية من كل تلك الألوان من الانحراف.

طبعاً هذا لا يحتاج إلى حديث، ولا يحتاج إلى تمثيل لأنه واضح.

أمير المؤمنين حينما تولى الحكم، لم يكن يستهدف من تولي الحكم تحصين التجربة أو الدولة، بقدر ما كان يستهدف تقديم المثل الأعلى للإسلام، لأنه كان يعرف أن التناقضات، في الأمة الإسلامية، بلغت إلى درجة لا يمكن معها أن ينجح عمل إصلاحي إزاء هذا الانحراف مع علمه أن المستقبل لمعاوية، وأن معاوية هو الذي يمثل القوى

الكبيرة الضخمة في الأمة الإسلامية.

كان يعرف أن الصور الضخمة الكبيرة التي خلقها عثمان والتي خلقها انحراف هذه القوى، كلها إلى جانب معاوية، وهو ليس إلى جانبه ما يعادل هذه القوى، لكن مع هذا قبل الحكم، ومع هذا بدأ تصفية وتعرية الحكم والانحراف الذي كان قبله، ومع هذا مارس الحكم وضحى في سبيل هذا الحكم بعشرات الآلاف من المسلمين، في سبيل أن يقدم الأطروحة الصحيحة الصريحة للإسلام وللحياة الإسلامية.

إن علي بن أبي طالب عليه السلام في معارضته، وعلي بن أبي طالب في حكمه لم يكن يؤثر على الشيعة فقط، بل كان يؤثر على مجموع الأمة الإسلامية، علي بن أبي طالب ربى المسلمين جميعاً شيعة وسنة، حصّن المسلمين جميعاً شيعة وسنَّة، علي بن أبي طالب أصبح أطروحة ومثلاً أعلى للإسلام الحقيقي، من الذي كان يحارب مع علي بن أبي طالب؟ هؤلاء المسلمون الذين

كانوا يحاربون في سبيل هذه الأطروحة العالية في سبيل هذا المثل الأعلى، أكانوا كلهم شيعة بالمعنى الخاص؟ لا، لم يكونوا كلهم شيعة. هذه الجماهير التي انتفضت بعد علي بن أبي طالب على مر التاريخ، بزعامات أهل البيت بزعامات العلويين الثائرين من أهل البيت، الذين كانوا يرفعون راية علي بن أبي طالب للحكم، هؤلاء كلهم شيعة؟

كان أكثرهم لا يؤمن بعلي بن أبي طالب إيمان الشيعة، ولكنهم كانوا ينظرون إلى علي أنه المثل الأعلى، إنه الرجل الصحيح الحقيقي للإسلام، حينما أعلن والي عبد الله بن الزبير سياسة عبد الله بن الزبير، وقال: بأننا سوف نحكم بما كان يحكم به عمر وعثمان، وقامت جماهير المسلمين تقول: لا بل بما كان يحكم به علي بن أبي طالب، فعلي بن أبي طالب كان يمثل اتجاهاً في مجموع الأمة الإسلامية.

الخلافة العباسية كيف قامت؟ كيف نشأت؟ قامت

على أساس دعوة كانت تتبنى زعامة الصادق من آل محمد ﷺ. الحركة السلمية التي على أساسها نشأت الخلافة العباسية كانت تأخذ البيعة للصالح، للإمام الصادق من آل محمد ﷺ، يعني هذه الحركة استغلت عظمة الإسلام، عظمة هذا الاتجاه، وتجمع المسلمون حول هذا الاتجاه، ولم يكن هؤلاء مسلمون شيعة، أكثر هؤلاء لم يكونوا شيعة، لكن كانوا يعرفون أن الاتجاه الصالح، الاتجاه الحقيقي، الاتجاه الصلب العنيف كان يمثله علي بن أبي طالب عليه السلام، والواعون من أصحاب علي عليه السلام والواعون من أبناء علي عليه السلام. ولهذا كثير من أبناء العامة، ومن أئمة العامة، من أكابر أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، كانوا أناساً عاميين يعني كانوا أناساً سنة، ولم يكونوا شيعة.

دائماً كان الأئمة عليهم السلام يفكرون، في أن يقدموا الإسلام لمجموع الأمة الإسلامية، أن يكونوا مناراً، أن يكونوا أطروحة، أن يكونوا مثلاً أعلى.

كانوا يعملون على خطين، خط بناء المسلمين الصالحين، وخط ضرب مثل أعلى لهؤلاء المسلمين، بقطع النّظر عن كونهم شيعة أو سنة.

هناك علماء من أكابر علماء السنة، أفتوا بوجوب الجهاد، وبوجوب القتال بين يدي ثوار آل محمد ﷺ، وأبو حنيفة نفسه الذي كان من أئمة السنة، أفتى بوجوب الجهاد مع راية من رايات علي عليه السلام، مع راية تحمل شعار علي بن أبي طالب، قبل أن يتعامل أبو حنيفة مع السلاطين.

إذن فاتجاه علي بن أبي طالب، لم يكن اتجاهاً منفرداً، اتجاهاً محدوداً كان اتجاهاً واسعاً على مستوى الأمة الإسلامية كلها، لأجل أن يعرّف الأمة الإسلامية وأن يحصن الأمة الإسلامية بالإسلام، وبأهداف الإسلام، وكيف يمكن للإنسان أن يعيش الحياة الإسلامية في إطار المجتمع الإسلامي.

المهم من هذا الحديث، أن نأخذ العبرة وأن نقتدي،

حينما نرى أن علي بن أبي طالب عليه السلام على عظمته يربي أصحابه على أنهم أصحاب الهدف، لا أصحاب نفسه يجب أن لا أفكر أنا، ويجب أن لا تفكر أنت، بأن تربي أصحابك على أنهم أصحابك، وإنما هم أصحاب الرسالة، أي واحد منكم ليس صاحباً للآخر، ولهذا يجب أن نجعل الهدف دائماً مقياساً، نجعل الرسالة دائماً مقياساً. احكموا علي باللحظة التي انحرف فيها عن الهدف، لأن الهدف هو الأعز هو الأعلى، هو رب الكون، الذي يجب أن تشعروا بأنه يملككم، بأنه بيده مصيركم، بيده مستقبلكم، إنه هو الذي يمكن أن يعطيكم نتائج جهادكم.

هل أنا أعطيكم نتائج جهادكم، أو أي إنسان على وجه الأرض يمكن أن يعطي الإنسان نتائج جهاده، نتائج عمله، نتائج إقدامه على صرف شبابه، حياته، عمره، زهده على تحمله آلام الحياة، تحمله للجوع تحمله للظلم، تحمله للضيم، من الذي يعطي أجر كل هذا؟ هل الذي يعطي أجر هذا أنا وأنت، لا أنا ولا أنت يعطي أجر هذا، إنما الذي يعطي أجر هذا هو الهدف فقط. هذا هو الذي

يعطي النتيجة والتقييم، هو الذي سوف يغير أعمالنا، هو الذي سوف يصحح درجاتنا.

* * *

بعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام

إن المتسلم للقيادة الفعلية، المتسلم لزمام التجربة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان من المحتوم أن يجنح إلى الانحراف، لأنه كان يعيش رواسب جاهلية، وبالتالي لم يكن يُمثل الدرجة الكاملة للإنصهار مع الرسالة، هذه الدرجة التي هي شرط أساسي لتزعم هذه التجربة، وهي التي يمكن أن تفسّر موقف الشيعة من اشتراطهم العصمة لقيادة هذه التجربة.

الفكرة من هذا الحديث تقوم على هذا الأساس، على أساس أن قيادة التجربة، يجب أن تكون على مستوى العبء، وهذا في الواقع ليس من مختصات الشيعة، ليس من مختصات الشيعة الإيمان بأن الإمام يجب أن يكون

معصوماً، بل هذا ما تؤمن به كل الاتجاهات العقائدية في العالم على الإطلاق.

أي اتجاه عقائدي في العالم، يريد أن يبني الإنسان من جديد في إطاره، ويريد أن ينشىء للإنسانية معالم جديدة، فكرية وروحية واجتماعية، يشترط لأن ينجح، وأن ينجز وأن يأخذ مجراه في خط التاريخ، يشترط أن يكون القائد الذي يمارس تطبيق هذا الاتجاه، معصوماً..

فالقائد في نظر الماركسية مثلاً بوصفها اتجاهاً عقائدياً، يريد أن يبني ويصنع الإنسان، ويبلورهُ في إطاره الخاص، يشترط فيه أن يكون معصوماً.

إلاَّ أن مقاييس العصمة تختلف.

الاتجاه الماركسي يجب أن يكون القائد الذي يمارس تطبيقه معصوماً بمقاييس ماركسية، والقائد الذي يمارس زعامة التجربة الإسلامية، يجب أن يكون معصوماً بمقاييس إسلامية، والعصمة في الحالتين بمفهوم واحد، هو عبارة

عن الانفعال الكامل بالرسالة، والتجسيد الكامل لكل معطيات تلك الرسالة، في النطاقات الروحية والفكرية والعملية.

هذه هي العصمة.

والشيعة لم يشذوا باشتراط العصمة في الإمام، عن أي اتجاه عقائدي آخر، ولهذا نرى في الاتجاهات العقائدية الأخرى، كثيراً ما يتهم القائد الذي يمثل الاتجاه، بأنه ليس معصوماً، يوجه إليه نفس التهمة، التي نوجهها نحن أصحاب علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الذين تولوا السلطات في المسلمين.

نفس هذه التهمة يوجهونها إلى القادة الذين يعتقدون بأنهم لم ينصهروا بأطروحاتهم ولم يتفاعلوا باتجاهاتها تفاعلاً كاملاً.

بالأمس القريب جزء كبير من الماركسية في العالم انشطر على قيادة الاتحاد السوفياتي، واتهم القيادة التي كانت متمثلة في حكام روسيا، بأنهم أناس غير مهيئين لأن

يكونوا قادة للتجربة الماركسية يعني غير معصومين بحسب لغتنا.

إلاَّ أن نفي العصمة عنهم بمقاييس ماركسية لا مقاييسنا الخاصة، لا بمقاييس إسلامية.

فأصل الفكرة، تؤمن به كل الاتجهات العقائدية، وإنما المقياس لعصمة يختلف باختلاف طبيعة هذه الاتجاهات العقائدية.

نعم، العصمة في الإسلام، ذات صيغة أوسع نطاقاً من العصمة في الاتجاهات العقائدية الأخرى، وهذه السعة في صيغة العصمة تنبع من طبيعة سعة الإسلام نفسها، لأن العصمة كما قلنا، هي التفاعل الكامل والانصهار الشامل والتجاوب مع الرسالة في كل أبعاد الإسلام.. والرسالة الإسلامية تختلف عن أي رسالة أخرى في العالم، لأن أي رسالة أخرى في العالم تعالج جانباً واحداً من الإنسان، الماركسية التي تمثل أحدث رسالة عقائدية في العالم الحديث تعالج جانباً واحداً من وجود الإنسان وتترك

الإنسان حينما يذهب إلى بيته، حينما يذهب الإنسان إلى مخبئه، حينما يخلو الإنسان بنفسه، تترك الإنسان، ليس لها أي علاقة معه في هذه الميادين، وإنما تأخذ بيده في مجال الصراع السياسي والاقتصادي لا أكثر.

فصيغة الرسالة بطبيعتها صيغة منكمشة محدودة، صيغة تعالج جانباً من الحياة الإنسانية، فالعصمة العقائدية التي لا بدَّ أن تتوفر في قائد ماركسي، مثلاً هي العصمة في حدود هذه المنطقة التي تعالجها الرسالة العقائدية الماركسية.

أما الرسالة الإسلامية فهي تعالج الإنسان من كل نواحيه، وتأخذه بيده إلى كل مجالاته ولا تفارقه وهو على مخدعه في فراشه وهو في بيته وبينه وبين ربه، بينه وبين نفسه، بينه وبين أفراد عائلته، وهو في السوق، وهو في المدرسة، وهو في المجتمع، وهو في السياسة، وهو في الاقتصاد وهو في أي مجال من مجالات حياته، ولهذا تكون الصيغة المحدودة من العصمة على أساس هذه الرسالة أوسع

نطاقاً وأرحب أفقاً وأقسى شروطاً، وأقوى من ناحية مفعولها وامتدادها في كل أبعاد الحياة الأنسانية.

فعصمة الإمام عبارة عن نزاهة في كل فكرة وكل عاطفة وكل شأن، والنزاهة في كل هذا عبارة عن انصهار كامل مع مفاهيم وأحكام الرسالة الإسلامية، في كل مجالات هذه الأفكار والعواطف والشؤون.

إذن فالعصمة التي هي شرط لمجموع الاتجاهات العقائدية، نحن أيضاً نؤمن بها كشرط في هذا الاتجاه.

وبطبيعة الحال فإننا عندما نقول، إن العصمة شرط في هذا الاتجاه، العصمة بحد ذاتها أيضاً ليست أمراً حتمياً غير قابل للزيادة والنقصان والتشكيك، نفس العصمة إذا حولناها إلى مفهوم النزاهة والتجاوب الكامل مع الرسالة فيكون أمراً مقولاً بالتشكيك في الشدة والضعف. . . .

ومن هنا نأتي إلى ما كان موضوع الحديث، موضوع

الحديث أن هؤلاء الذين تسلموا أمر التجربة لم يكونوا معصومين حتى بأدنى مراتب العصمة حتى بالحد الأدنى من مراتب النزاهة والتفاعل مع الرسالة الإسلامية، وحينئذٍ حيث أن التجربة تجربة تمثل اتجاهاً عقائدياً، واتجاهاً رسالياً، ليس اتجاه أناس يمثلون وجهة نظر معينة في الكون والحياة والمجتمع، يمثلون رسالة لتغيير الحياة على وجه الأرض وتغيير التاريخ، إذن هذه التجربة العقائدية الضخمة على هذا المستوى، بحاجة إلى قيادة عقائدية معصومة تتوفر فيها فعالية عالية جداً من النزاهة والتجرد والموضوعية والانفعال بمعطيات هذه الرسالة فكيف إذا لم تكن هذه المواصفات موجودة في القيادة؟

قد يقال: إنها كانت موجودة في الأمة ككل، والأمة ككل، كانت تمارس المراقبة، وكانت تمارس التوجيه، وكانت تمارس المراقبة للحكم القائم حتى لا ينحرف، الأمة ككل كانت معصومة، وإذا كانت الأمة ككل معصومة، إذن فالعصمة قد حصلنا عليها عن طريق الوجود الكلي للأمة.

إلاّ أنَّ هذه الفكرة غير صحيحة، نحن نؤمن بأن الأمة في وجودها لم تكن معصومة أيضاً، كما أن الذين تولوا الحكم، لم يكن يتوفر لديهم الحد الأدنى من النزاهة المطلوبة لزعامة تجربة من هذا القبيل، الأمة بوصفها الكلي وبوجودها المجموعي أيضاً لم تكن معصومة، طبعاً إذا استثنينا من ذلك الزعامة المعصومة الموجودة في داخل هذه الأمة المتمثلة في اتجاه أمير المؤمنين علي عليه السلام، هذا بالرغم من أننا نعترف ونفتخر ونمتلىء اعتزازاً بالإيمان بأن الأمة الإسلامية التي أسسها وحرسها النبي صلى الله عليه وآله ضربت أروع نموذج للأمة في تاريخ البشرية على الإطلاق، الأمة الإسلامية التي أمكن للنبي صلى الله عليه وآله بوقت قصير جداً في مدة لا تبلغ ربع قرن، أن ينشىء أمة لها من الطاقة والإرادة، لها من المؤهلات اللازمة القدر الكبير، الذي لا يمكن أبداً أن يتخيل الإنسان الاعتيادي كيف أمكن إيجاده في ربع قرن أو أقل، هذه الأمة التي قدمت من التضحيات في أيام النبي صلى الله عليه وآله في سبيل رسالتها ما لم تقدم مثله أي أمة من أمم الأنبياء قبل النبي صلى الله عليه وآله، هذا التسابق على الجنة، التسابق

على الموت، الإيثار الذي كان موجوداً بين المسلمين، روح التآخي التي شاعت في المسلمين، المهاجرين والأنصار، كيف عاشوا كيف تفاعلوا، كيف انصهروا، انظروا إلى أهل بلد واحد ينزح إليهم أهل بلد آخر، فيأتون إليهم ليقاسموهم خيرات بلدهم، ومعاشهم، وأموالهم، وهؤلاء يستقبلونهم برحابة صدر، ينطلقون معهم ينظرون إليهم على أنهم إخوة لهم، يعيشون مجتمعاً واحداً وكأنهم كانوا قد عاشوا مئات السنين، هذه الانفتاحات العظيمة في كل ميادين المجتمع التي حققتها الأمة بقيادة الرسول ﷺ هذه الانفتاحات، التي لا مثيل لها، بالرغم من كل هذا نقول إن الأمة لم تكن معصومة.

إن هذه الانفتاحات كانت قائمة على أساس الطاقة الحرارية التي كانت تمتلكها الأمة من لقاء القائد الأعظم، ولم تكن قائمة على أساس درجة كبيرة من الوعي الحقيقي للرسالة العقائدية. نعم كان الرسول الأعظم ﷺ، يمارس عملية توعية الأمة، وعملية الارتفاع بها إلى مستوى أمة معصومة، هذه العملية التي كانت مضغوطة، والتي بدأ

بها النبي ﷺ ولم تسمح له الفترة الزمنية باكمالها، وإنما الشيء الذي أنجز في هذا الخط، خط عمل النبي ﷺ على مستوى الأمة ككل، هو إعطاء هذه الأمة طاقة حرارية في الإيمان بدرجة كبيرة جداً، مثل هذه الطاقة الحرارية التي تملكها الأمة يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وفي كل لحظة من لحظات انتصارها أو انكسارها، كانت هي المصدر وهي السبب في كل الانفتاحات العظيمة، روح القائد هي التي تجذب وهي التي تحصد، وهي التي تقود هؤلاء إلى المثل العليا والقيم الضخمة الكبيرة التي حددها الرائد الأعظم ﷺ بين أيديهم، إذن فهي طاقة حرارية وليست وعياً.

وقلنا أيضاً فيما سبق، إن الطاقة الحرارية والوعي قد يتفاعلان ويتفقان في كثير من الأحيان ولا يمكن أن نقارن في الحالات الاعتيادية بين أمة واعية، وبين أمة تملك طاقة حرارية كبيرة دون درجة كبيرة من الوعي، المظاهر تكون مشتركة في كثير من الأحيان، لكن في منعطفات معينة في حياة هذه الأمة، يتبين الفرق بين الوعي والطاقة الحرارية في

لحظات الانفعال الشديد، سواء كان انفعالاً موافقاً لعملية الانتقال، أو انفعالاً معاكساً، لأن الوعي لا يتزعزع في لحظة الانفعال ويبقى صامداً ثابتاً، لا يلين ولا يتميع، وعي الإنسان، إيمان الإنسان بأهدافه ومسؤولياته، فوق كل الانفعالات، فوق كل المشاكل، فوق كل الانتصارات. أي انتصار يحققه الإنسان، لا يمكن أن يخلق انفعالاً يزعزع وعيه، إذا كان واعياً وعياً حقيقياً يبقى على الخط، لا يشط ولا يشذ ولا يزيد أو ينقص.

محمد ﷺ هذا الرجل العظيم، يدخل إلى بيت الله الحرام منتصراً في لحظة، لم تزعزع هذه اللحظة، من خلقه، لم تخلف فيه نشوة الانتصار، وإنما خلفت فيه ذل العبودية لله شعر بذل العبودية لله أكثر مما يشعر بنشوة الانتصار، هذا هو الذي يمثل الوعي العظيم، لكن المسلمين عاشوا نشوة الانتصار، في لحظات عديدة لحظات الصدمة، لحظات المشكلة، لحظات المأساة. الواعي يبقى ثابتاً، يبقى صامداً أمام المشكلة لا يتزعزع، لا يلين لا يكف لا يتراخى، يبقى على خطه واضحاً. النبي ﷺ لم يكن يبدو

منه أي فرق بينه هو حال دخوله إلى مكة فاتحاً، وبينه وهو مطرود بالحجارة من قبائل العرب المشركين، حين يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى يقول له: لا يهمني ما يصنع هؤلاء إذا كنت راضياً عني، نفس الروح التي نجدها في لحظة انقطاعه، في لحظة مواجهته البشرية التي تحمل ألوان الشرور، في لحظة تمرد الإنسان على هذا الوجه الذي جاء لصلحه، لم تتبدل حالته في هذه اللحظة وبين حالته والإنسانية تستجيب والإنسانية تخضع، والإنسانية تطأطىء رأسها بين يدي القائد العظيم ﷺ؛ هذا هو الوعي.

أما الأمة فإنها لم تكن هكذا، فالأمة الإسلامية كانت تحمل طاقة حرارية كبيرة، ولم تكن أمة واعية بدرجة كبيرة فلم تكن العصمة متوفرة لا في القيادة، ولا في الأمة بوجودها المجموعي، ومن أجل هذا كان الانحراف حتمياً، وهكذا بدأ الانحراف، وقلنا إن الخط الذي بدأه الأئمة عليهم السلام هذا الخط ينحل إلى شكلين:

الأول: خط محاولة القضاء على هذا الانحراف

بالتجربة، أليست التجربة تجربة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية.

هذه التجربة انحرفت بإعطاء زمامها إلى أناس لا يؤمنون عليها وعلى مُقَدّراتها، وعلى ممتلكاتها، الخط الأول كان يحاول أخذ هذه التجربة، تسلم زمام التجربة.

الثاني: هو الخط الذي كان يعلمه الأئمة عليهم السلام حتى في الحالات التي كانوا يرون أن ليس في الإمكان السعي وراء تسلم زمام التجربة، وهو خط الضمان لوجود الأمة مستقبلاً.

قلنا إن التجربة حينما انحرفت، كان من المنطقي في تسلسل الأحداث، أن يتعمق هذا الانحراف ثم يتعمق حتى تنهار التجربة، وإذا انهارت التجربة أمام أول غزو، أمام أول تيار، إذن فلن تحارب عن إسلامها بالتدريج لأنها لم تجد في هذا الإسلام المنحرف ما تدافع عنه، إذ ماذا جنوا من هذا الإسلام.

كيف نقدر أن نتصور أن الإنسان غير العربي يدافع عن

الإسلام الذي يتبنى زعامة العربي لغير العربي؟ كيف يمكن أن نتصور أن الإنسان العربي والفارسي يدافع عن كيان يعتبر هذا الكيان هو ملك لأسرة واحدة من قبائل العرب وهي أسرة قريش؟ كيف يمكن أن نفرض أن هؤلاء المسلمين يشعرون بأنهم قد وجدوا حقوقهم قد وجدوا كرامتهم، في مجتمع يضج بكل ألوان التفاوت والتميز والاستئثار والاحتكار؟

إذن كانوا قد يتنازلون عن هذا الإسلام حينما تنهار التجربة بعد تعمق الانحراف؛

إلاَّ أن الذي جعل الأمة لا تتنازل عن الإسلام، هو أن الإسلام له مثل آخر قدم له، مثل واضح المعالم، أصيل المثل والقيم، أصيل الأهداف والغايات، قدمت هذه الأطروحة من قبل الواعين من المسلمين بزعامة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام . . ولنعرف مسبقاً قبل أن نأتي إلى التفاصيل، أن هذه الأطروحة التي قدمها الأئمة عليهم السلام للإسلام لم تكن تتفاعل فقط مع الشيعة المؤمنين بإمامة أهل

البيت عليهم السلام فقط، هذه الأطروحة كان لها صدى كبير في كل العالم الإسلامي فالأئمة عليهم السلام كانت لهم أطروحة للإسلام وكانت لهم دعوى لإمامة أنفسهم، صحيح أن الدعوى لإمامة أنفسهم لم يطلبوا لها إلاَّ عدداً ضئيلاً من مجموع الأمة الإسلامية، ولكن الأمة الإسلامية بمجموعها تفاعلت مع هذه الأطروحة، إذن فكان الخط الكبروي للأئمة عليهم السلام هو تقديم الأطروحة الصحيحة للإسلام والنموذج والمخطط الواضح الصحيح الصريح، للإسلام، في كل مجالات الإسلام في المجالات الخاصة والمجالات العامة، في المجالات الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، والخلقية والعبادية، كانوا يقدمون هذه الأطروحة الواضحة، التي جعلت المسلمين على مر الزمن يسهرون على الإسلام ويقيمونه وينظرون إليه بمنظار آخر غير منظار الواقع الذي يعيشونه، غير منظار التجربة التي يعيشونها.

هذا هو الخط الثاني عمل عليه الأئمة عليهم السلام .

أمير المؤمنين حينما واجه الانحراف في التجربة قام

بعملية تعبئة فكرية في صفوف المسلمين، إلا أنه لم يستطع أن يستثير المسلمين بالدرجة التي تحول مجرى التجربة ويجعل هناك تبدلاً أساسياً في الخط القائم. لم يستطع ذلك، وهذا أمر طبيعي، يعني من الطبيعي أن ينتهي أمير المؤمنين إلى عدم النجاح في القضاء على الانحراف.

يجب أن نعرف أن علياً عليه السلام لم يكن رئيساً حينما فشل، ولم يكن قاصراً حينما فشل، كل هذا لم يكن، لأن كل هذا غير محتمل في شخص هو قمة النشاط، وقمة الحيوية وقمة الحرص. كان موقفه حرجاً غاية الحرج تجاه الموانع، أما ما هي صيغة هذه الموانع، هذه الموانع تحتاج إلى دراسة مفصلة لنفسية المجتمع الإسلامي في أيام الرسول صلى الله عليه وآله. فهنالك عوامل كثيرة لها دخل في نسج خيوط هذه الموانع. يمكن أن نذكر بعضها على سبيل المثال:

العامل الأول: التفكير اللاإسلامي من ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، رسول الله صلى الله عليه وآله جعل علياً بعده حاكماً

على المسلمين، المؤمنين بالله ورسوله حقاً، هؤلاء المسلمون المؤمنون بالله وبرسوله حقاً، قلنا إنهم لم يكونوا من الواعين بدرجة كبيرة، نعم كان عندهم طاقة حرارية تصل إلى درجة الجهاد، إلى الموت في سبيل الله هؤلاء الذين قاموا بعد النبي ﷺ ضد علي بن أبي طالب عليه السلام، أنا لا أشك بأنهم مرّت عليهم بعض اللحظات، كانوا على استعداد لأن يضحوا بأنفسهم في سبيل الله، وأنا لا أشك أن الطاقة الحرارية كانت موجودة عند هؤلاء، سعد بن عبادة الخزرجي مثلاً، هذا الذي عارض علي بن أبي طالب عليه السلام إلى حين، والذي فتح أبواب المعارضة على علي بن أبي طالب إلى حين، سعد هذا، كان مثل المسلمين الآخرين يكافح ويجاهد، غاية الأمر لم يكن لديه الوعي، هؤلاء المسلمون المؤمنون بالله ورسوله ﷺ، لم يكونوا على درجة واحدة من الوعي وكانت الكثرة الكاثرة منهم أناساً يملكون الطاقة الحرارية، بدرجة متفاوتة، ولم يكونوا يملكون وعياً، إذن فقد تبادر إلى ذهن عدد كبير من هؤلاء أن محمداً ﷺ يفكر أن يعلي

مجد بني هاشم، أن يعلي كيان هذه الأسرة؛ أن يمد بنفسه بعده فاختار علياً، اختار ابن عمه، لأجل أن يمثل علي بن أبي طالب أمجاد أسرته، هذا التفكير كان تفكيراً منسجماً مع الوضع النفسي الذي يعيشه أكثر المسلمين كراسب الجاهلية، كراسب عرفوه ما قبل الإسلام، ولم يستطيعوا أن يتحملوا تحملاً تاماً، أبعاد الرسالة، ألسنا نعلم.. ماذا صنعوا في غزوة حنين، حينما وزع رسول الله ﷺ المال، وزع الغنائم على قريش ولم يعط الأنصار، وزعه على قريش على أهل مكة، ولم يعط أهل المدينة، ماذا صنع هؤلاء ماذا صنع أهل المدينة؟ أخذ بعضهم يقول لبعض: إن محمداً لقي عشيرته فنسينا، لقي قريشاً ونسي الأوس والخزرج، هاتين القبيلتين اللتين قدمتا ما قدمتا للإسلام، إذن فكان هؤلاء على المستوى الذي تصوروا في هذا القائد الرائد العظيم، الذي كان يعيش الرسالة، آثر قبيلته بمال، فكيف لا يتصورون أنه يؤثر عشيرته بحكم، بزعامة، بقيادة على مر الزمن وعلى مر التاريخ.

هذا التصور كان يصل إلى المستوى المتدني من

الوعي، هؤلاء لم يكونوا قد أدركوا بعد أبعاد محمد ﷺ ولم يكونوا قد أدركوا أبعاد الرسالة الإسلامية، وكانوا بين حين وحين يطفو على أنفسهم الراسب الجاهلي وينظرون إلى النبي من منظار ذلك الراسب الجاهلي، ينظرون إليه كشخص يرتبط بالعرب ارتباطاً قومياً، ويرتبط بعشيرته ارتباطاً قبلياً ويرتبط بابن عمه ارتباطاً رحمياً، كل هذه الارتباطات كانت تراود أذهانهم بين حين وحين، وأنا أظن ظناً كبيراً أن علي بن أبي طالب عليه السلام لو لم يكن ابن عم النبي ﷺ لو أن الصدفة لم تشأ أن يكون الرجل الثاني في الإسلام لو لم يكن من أسرة محمد ﷺ لو كان من عدي، أو لو كان من تميم، لو كان من أسرة أخرى، لكان لهذه الولاية مفعولاً كبيراً جداً، لقضي على هذا التفكير اللاإسلامي.. لكن ما هي حيلة محمد إذا كان الرجل الثاني في الإسلام ابن عمه، لم يكن له حيلة في أن يختار شخصاً دون شخص آخر وإنما كان عليه أن يختار الرجل الثاني في الإسلام، في تاريخ الرسالة، في كيان الرسالة، وفي الجهاد.. في سبيل الرسالة، وفي الاضطهاد في سبيل

الرسالة، لقد كان هذا من باب الاتفاق ابن عم محمد ﷺ. هذا الاتفاق فتح باب المشاغبة على هؤلاء، هذا هو العامل الأول، هذا العامل يعيش في نفوس المؤمنين بالله تعالى وبرسوله ﷺ.

العامل الثاني: عامل يعيش في نفوس المنافقين، والمنافقون كثيرون في المجتمع الإسلامي، خاصة وأن المجتمع الإسلامي كان قد انفتح قبيل وفاة رسول الله ﷺ انفتاحاً جديداً على مكة، وكانت قد دخلت مكة أيضاً داخل هذا المجتمع، ودخلت قبائل كثيرة في الإسلام قبيل وفاة رسول الله ﷺ وكان هناك أناس كثيرون قد دخلوا الإسلام نفاقاً، ودخلوه طمعاً، ودخلوه حرصاً على الجاه، ودخلوه استسلاماً للأمر الواقع، لأن هذا مُسلّم، لأن محمداً فرض زعامته على العرب. لم يكن شخص يفكر في أن تزعزع هذه الزعامة، إذن فلا بدَّ من الاعتراف بهذه الزعامة.

دخل كثير من الناس بهذه العقلية، وهؤلاء كانوا يدركون كل الإدراك أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو

الرجل الثاني للنبي ﷺ وهو الاستمرار الصلب العنيد للرسالة، لا الاستمرار الرخو المتميع لها. وهؤلاء كانوا مشدودين إلى أطماع وإلى مصالح كانت تتطلب أن تستمر الرسالة ويستمر الإسلام، لأن الإسلام إذا انطفأ، معنى هذا أنه سوف تنطفىء هذه الحركة القوية التي بنت دولة ومجتمعاً والتي يمكن أن تطبق على كنوز دولة كسرى وقيصر وتضم أموال الأرض كلها إلى هذه الأمة، كان من المصلحة أن تستمر هذه الحركة، لكن كان من المصلحة أن لا تستمر بتلك الدرجة من الصلابة والجدية، بل أن تستمر بدرجة رخوة هينة لينة.

كان لا بدَّ وأن تستمر الرسالة لكن تستمر بشكل لين هين، بشكل ينفتح على مطامح أبي سفيان، بشكل يمكن أن يتعامل معه أبو سفيان الذي جاء إلى علي عليه السلام في لحظة قاسية تلك اللحظة التي يشعر فيها الإنسان عادة بقدر كبير من المظلومية حيث يرى كيف أن الناس قد تنكروا لكل أمجاده وأنكروا كل جهاده حتى أخوَّته لرسول الله ﷺ، في هذه اللحظة جاءه أبو سفيان يعرض عليه القيادة بين

يديه، يعرض عليه أن يزعّمه في سبيل أن يكون هو اليد اليمنى للدولة الإسلامية، يأبى علي عليه السلام ذلك، يأبى وهو مظلوم، وهو متآمر عليه، وهو مضطهد حقه، وبهذا كانت قيادة علي بن أبي طالب عليه السلام وزعامته تمثل خطراً على مصالح المنافقين فكان لا بدَّ في سبيل الحفاظ عليها من قبل المنافقين هؤلاء أن يخلقوا في سبيلها العراقيل ويقيموا الحواجز والموانع.

العامل الثالث: وهو مرتبط بمراحل نفسية خلقية، علي بن أبي طالب عليه السلام كان يمثل باستمرار تحدياً بوجوده التكويني، كان يمثل تحدياً للصادقين من الصحابة لا للمنحرفين من الصحابة، كان يمثل تحدياً بجهاده، بصرامته، باستبساله... بكل هذه الأمور، كان يضرب الرقم القياسي الذي لا يمكن أن يحلم به أي صحابي آخر، كل هؤلاء كانوا يودون أن يقدموا خدمة للإسلام.

أتكلم عن الصحابة الصالحين، الصحابة الصالحون كانوا يودون أن يقدموا خدمة للإسلام ولكن علي بن أبي

طالب عليه السلام كان يفوقهم بدرجة كبيرة، بدرجة هائلة.

معاوية يقول في كتابه لمحمد بن أبي بكر بأن علياً كان في أيام النبي صلى الله عليه وآله كالنجم في السماء لا يطاول، الأمة الإسلامية كانت تنظر إليه كالنجم في السماء بالرغم من أن العدد الكبير منها لم يكونوا يحبونه، كان علي مجاهداً بدرجة لا يمكن أن يقاس به شخص آخر، وهكذا في كل كمالات الرسالة الإسلامية، إذن فعلي كان تحدياً، كان استفزازاً للآخرين، وهؤلاء الآخرون ليسوا كلهم يعيشون الرسالة فقط، بل جملة منهم يعيشون أنفسهم أيضاً، يعيشون أنانيتهم أيضاً، وحينما يشعرون بهذا الاستفزاز التكويني من شخص هذا الرجل العظيم الذي كان يتحداهم وهو لا يقصد أن يتحداهم، بل يقصد أن يهديهم، وأن يبني لهم مجدهم، يبني لهم رسالتهم وعقيدتهم، لكن ماذا يصنع بأناس يعيشون أنفسهم.

فهؤلاء الأناس كانوا يفكرون في أن هذا تحد واستفزاز لهم، كان رد الفعل لهذا مشاعر ضخمة جداً ضد

علي بن أبي طالب عليه السلام .

يكفي مثال واحد ليتضح هذا الموقف. النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسافر من المدينة إلى غزوة من الغزوات فيخلف علياً مكانه أميراً على المدينة، فهل تركه الناس، لا إنما أخذوا يشيعون بالرغم من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المرات السابقة كان يستخلف أحد الأنصار على المدينة غير علي، فكانوا يشيعون، بأنه ترك علياً لأنه لا يصلح للحرب؟؟ علي بن أبي طالب هذا الرجل الصلب، العنيد، المترفع، هذا الرجل الذي يقول: لا يزيدني إقبال الناس عليَّ ولا ينقصني إدبارهم عني. هذا الرجل الصلب استُفزَّت أعصابه إلى درجة أنه اضطر أن يلحق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيسأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن سبب تركه المدينة، فيقول: الناس يقولون بأنك طردتني لأني لا أصلح للحرب؟؟

يمكن أن تنكر أية فضيلة من فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام ، ولكن هل يمكن أن ينكر أن عليّاً بن أبي طالب لا يصلح للحرب؟ انظروا الحقد كيف وصل عند

هؤلاء المسلمين بأن أخذوا يفسرون إمارة علي بن أبي طالب عليه السلام على المدينة بأنه لا يصلح للحرب، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله كلمته المشهورة: إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى، إنه لا ينبغي أن أخرج من المدينة إلاّ وأنت فيها إثباتاً لوجودي ولتحمي المدينة.

هذا الموقف من هؤلاء لا يمكن أن يفسر إلاّ على أساس هذا العامل النفسي هذا العامل الثالث.

وهناك عوامل أخرى هذه العوامل كلها اشتركت في سبيل أن تجعل هناك موانع قوية جداً اصطدم بها النبي صلى الله عليه وآله عند تشريع الحكم، واصطدم بها علي بن أبي طالب عند محاولة مقابلة الانحراف وتعديل التجربة وإرجاعها إلى وضعها الطبيعي، ولهذا فشل في زعزعة الوضع القائم.

قلنا إنه حينما وجد الانحراف، لم تكن الأمة على مستوى المراقبة بوصفها المجموعي، لم تكن قادرة على ضمان عدم وقوع هذا الحاكم المنحرف بطبيعته في سلوك منحرف، لأن كون الأمة على هذا المستوى من الضمان،

إنما يكون فيما إذا وصلت الأمة بوصفها المجموعي إلى درجة العصمة، أي إذا أصبحت الأمة كأمة تعيش الإسلام عيشاً كاملاً عميقاً، مستوعباً مستنيراً منعطفاً على مختلف مجالات حياتها، هذا لم يكن، بالرغم من أن الأمة الإسلامية وقتئذٍ، كانت تشكِّلُ أفضل نموذج للأمة في تاريخ الإنسان على الإطلاق. يعني نحن الآن لا نعرف في تاريخ الإنسان، أمة بلغت في مناقبها، وفضائلها، وقوة إرادتها وشجاعتها وإيمانها وصبرها وجلالتها وتضحيتها ما بلغته هذه الأمة العظيمة حينما خلفها رسول الله ﷺ.

الذي يقرأ التاريخ تاريخ هؤلاء الناس، الذين عاشوا مع النبي ﷺ تبهرهُ أنوارهم في المجال الروحي والفكري والنفسي، في مجال الجهاد والتضحية في سبيل العقيدة. ولكن هذه الأنوار التي تظهر للمطالع لم تكن نتيجة وضع معمق تعيشه الأمة في أبعادها الفكرية والنفسية، بل كانت نتيجة طاقة حرارية هائلة اكتسبتها هذه الأمة بإشعاع النبي ﷺ.

هذه الأمة التي عاشت مع أكمل قائد للبشرية، اكتسبت عن طريق الإشعاع من هذا القائد، درجة كبيرة من الطاقة الحرارية صنعت المعاجز، وصنعت البطولات والتضحيات التي يقل نظيرها في تاريخ الإنسان.

ولا أريد أن أتكلم عن هؤلاء الناس في أيام رسول الله ﷺ وإيثار كل واحد منهم للإسلام والعقيدة، إيثاره بكل وجوده وطاقته بكل إمكانياته وقدراته. هذه النماذج الرفيعة إنما هي نتاج هذه الطاقة الحرارية التي جعلت الأمة الإسلامية تعيش أيام رسول الله ﷺ محنة العقيدة والصبر وتتحمل مسؤولية هذه العقيدة بعد وفاته ﷺ وتحمل لواء الإسلام بكل شجاعة وبطولة إلى مختلف أرجاء الأرض، هذه هي طاقة حرارية وليست وعياً لذا يجب أن نفرق ونميز بين الطاقة الحرارية وبين الوعي:

الوعي: عبارة عن الفهم الفعّال الإيجابي المحقق للإسلام في نفس الأمة، الذي يتأصل ويستأصل جذور المفاهيم الجاهلية السابقة استئصالاً كاملاً. ويحوّل تمام

مواقف الإنسان من مواقف الفكر الجاهلي إلى مرافق الفكر الإسلامي والذوق الإسلامي.

أما الطاقة الحرارية: فهي عبارة عن توهج عاطفي حار، بشعور قد يبلغ في مظاهره نفس ما يبلغه الوعي في ظواهره بحيث يختلف الأمر، فلا يميز بين الأمة التي تحمل مثل هذه الطاقة الحرارية وبين أمة تتمتع بذلك الوعي إلاّ بعد التبصر.

إلاّ أن الفرق بين الأمة الواعية والأمة التي تحمل الطاقة الحرارية كبير، فإن الطاقة الحرارية بطبيعتها تتناقص بالتدريج بالابتعاد عن مركز هذه الطاقة الحرارية.

والمركز الذي كان يموّن الأمة بهذه الطاقة الحرارية هو شخص النبي ﷺ القائد. فكان طبيعياً أن تصبح طاقة الأمة بعده في تناقص مستمر، حال الشخص الذي يتزود من الطاقة الحرارية للشمس والنار، ثم يبتعد عنهما، فإن هذه الحالة تتناقص عنده باستمرار.

هكذا كان، وتاريخ الإسلام يثبت أن الأمة الإسلامية

كانت في حالة تناقص مستمر من هذا الطاقة الحرارية التي خلفها النبي ﷺ في أمته حين وفاته، بخلاف الوعي فإن الوعي بذلك المعنى المركز الشامل المستأصل لجذور ما قبله ذلك الوعي من طبيعته الثبات والاستقرار، بل التعمق على مر الزمن، لأنه بطبيعته يمتد ويخلق له بالتدريج خيالات جديدة وفقاً لخط العمل وخط الأحداث، فالأمة الواعية هي أمة تسير في طريق التعميق في وعيها والأمة التي تحمل طاقة حرارية هائلة، هي الأمة التي لو بقيت وحدها مع هذه الطاقة الحرارية فسوف تتناقص طاقتها باستمرار.

وهناك فرق آخر: هو أن الوعي لا تهزه الانفعالات، يصمد أمامها، أما الطاقة الحرارية فتهزها الانفعالات، الانفعال يفجر المشاعر الباطنية المستترة، يبرز ما وراء الستار، ما وراء سطح النفس كأن الطاقة الحرارية طاقة تبرز على سطح النفس البشرية، ففي حالة الانفعال، سواء كان الانفعال انفعالاً معاكساً، يعني حزناً وألماً أو كان انفعالاً موافقاً، أي فرحاً ولذة وانتصاراً، في كلا الحالتين سوف

يتفجر ما وراء الستار ويبرز ما كان كامناً وراء هذه الطاقة الحرارية في الأمة المزودة بهذه الطاقة فقط، أما الأمة الواعية فوعيها يجمد ويتقوى على مر الزمن فكلما مر بها انفعال جديد أكَّدت شخصيتها الواعية في مقابل هذا الانفعال، وصبغته بما يتطلبه وعيها من موقف.

هذا هو الفرق بين الوعي والطاقة الحرارية.

نحن ندعي أن الأمة الإسلامية العظيمة التي خلفها القائد الأعظم ﷺ والتي ضربت أعظم مثل للكون في تاريخ الإنسان إلى يومنا هذا، هذه الأمة كانت تحمل طاقة حرارية كبيرة، ولم تكن تحمل وعياً مستنيراً مجتثاً لأصول الجاهلية فيها.

والدليل على هذا كله واضح من تاريخ الأمة نفسها وكشاهد على ذلك، علينا أن ننظر إلى غزوة حنين، غزوة هوازن بعد فتح مكة، ماذا صنعت هذه الأمة العظيمة بتلك الطاقة الحرارية في لحظة الانفعال، رسول الله ﷺ خرج بجيش من الأنصار ومن قريش من أهل مكة فانتصر في

معركته وأخذ غنائم كثيرة، وكان قراره توزيع الغنائم كلها جميعاً على من خرج من مسلمي مكة، فوزعها كذلك، ولم يعط مسلمي الأنصار شيئاً منها، هذه لحظة انفعال نفسي، إذ هؤلاء الأنصار يرون أنفسهم خرجوا مع رسول الله ﷺ من المدينة ليفتحوا مكة، وفتحوها وحققوا للأمة أعظم انتصاراتها في حياة النبي ﷺ وبعد هذا يدخل النبي ﷺ في الدين أناساً جدداً يستقلون بتمام الغنائم ويأخذونها. هذه لحظة انفعال، في هذه اللحظة من لحظات الانفعال لا تكفي الأمة الطاقة الحرارية بل تحتاج الأمة إلى وعي يثبتها لتستطيع أن تتغلب على لحظة الانفعال هل كان مثل هذا الوعي موجوداً... الجواب أنه لم يكن: فإن الأنصار أخذوا يثيرون ما بينهم الهمس القائل: بأن محمداً ﷺ لقي أهله وقومه وعشيرته، فنسي أنصاره وأصحابه، هؤلاء الذين شاركوه في محنته، هؤلاء الذين ضحوا في سبيله، هؤلاء الذين قاوموا عشيرته في سبيل دعوته، نسيهم وأهملهم وأعرض عنهم، لأنه رأى أحباءه وأولاده عمه، رأى عشيرته.

انظروا إلى هذا التفسير، يبدو من خلال الأنصار وكأن المفهوم القبلي متركز في واقع نفوسهم، إلى درجة يبدو معه لهم، أن محمداً ﷺ وهو الرجل الأشرف والأكمل، الذي عاشوا معه، وعاشوا تمام مراحل حياته الجهادية، ولم يبد في كل مراحله الجهادية أي لون من الألوان يعطي شعوراً قبلياً قومياً، بالرغم من هذا، وبالرغم من خلوه من أي شعور يشير إلى ذلك. في لحظة الانفعال قالوا: بأنه وقع تحت تأثير العاطفة القبلية والقومية. هذه العاطفة القبلية أو القومية هذا الترابط القبلي كيف كان قوياً في لحظة من لحظات الانفعال، رسول الله ﷺ سمع بالهمس، إطلع على أن هناك بذور فتنة ضده في الأنصار، فأرسل على أبناء الأنصار من الأوس والخزرج، وجمعهم عنده ثم التفت إليهم ﷺ وقال ما معناه: لقد بلغني عن بعضكم هذا الموضوع أن محمداً نسي أصحابه وأنصاره حينما التقى بقومه، فسكت الجميع واعترف البعض بهذه المقالة. حينئذٍ أخذ رسول الله ﷺ يعالج الموقف والمشكلة وذلك بإعطاء المزيد من الطاقة الحرارية، لأن هذه المشكلة ذات

حدين، حد آني وحد على المدى الطويل، الحد على المدى الطويل يجب أن يعالج عن طريق التوعية على الخط الطويل، وهذا ما كان يمارسه ﷺ، والمشكلة بحدها الآني يجب أن تعالج أيضاً معالجة آنية، والمعالجة الآنية لا تكون إلاّ عن طريق إعطاء مزيد من هذه الطاقة الحرارية للسيطرة على لحظة الانفعال، ماذا قال ﷺ؟ كيف ألهب عواطفهم، قال لهم: ألا ترضون أن يذهب أهل مكة إلى بلادهم بمجموعة من الأموال الزائفة، وأنتم ترجعون إلى بلادكم بمحمد ﷺ، برسول الله ﷺ.

هذه كانت دفعة حرارية حوّلت الموقف في لحظة حيث أخذ هؤلاء الأوس والخزرج يبكون أمام رسول الله ﷺ ويستغفرون ويعلنون ولاءهم واستعدادهم وتعلقهم به، أراد رسول الله ﷺ أن يعمق هذا الموقف العاطفي أكثر فعندما سكن بكاؤهم وهدأت عواطفهم قال لهم: ألا تقولون لي مقابل هذا، ثم أخذ يترجم بعض الأحاسيس المستترة في نفوسهم حتى يهيج عواطفهم تجاهه، ويتيح لذلك المجلس جواً عاطفياً وروحياً، بعد ذلك يتغلب على

الموقف إلى آخر القصة.

هذه الأمة التي تحمل الطاقة الحرارية تنهار أمام لحظة انفعال.

شاهد آخر في لحظة انفعال أخرى أيضاً في تاريخ هذه الأمة:

الأمة بعد وفاة رسول الله ﷺ تملكتها لحظة انفعال كبيرة، لأن رسول الله ﷺ راحل وكان رحيله ﷺ يشكل هزة نفسية هائلة بالنسبة إلى الأمة الإسلامية، التي لم تكن قد تهيأت بعد ذهنياً وروحياً لأن تفقد رسول الله ﷺ، في هذه اللحظة من الانفعالات أيضاً المشاعر التي كانت في الأعماق برزت على السطح.

المهاجرون: هناك تكلمنا عن الأنصار، وهنا نتكلم عن المهاجرين، ماذا قال المهاجرون في لحظة الانفعال؟.. هؤلاء المهاجرون الذين هاجروا من بلادهم، وتركوا دورهم وعوائلهم وقومهم في سبيل الإسلام، ماذا قالوا، وماذا كان موقفهم؟

قالوا إن السلطان سلطان قريش، إن سلطان محمد سلطان قريش، نحن أولى من بقية العرب، وبقية العرب أولى من بقية المسلمين.

هنا يبرز الشعور القبلي والشعور القومي، في لحظة انفعال، لأن هذه اللحظة من الانفعال تشكل صدمة بالنسبة إلى الطاقة الحرارية يصبح الإنسان معها في حالة غير طبيعية حيث لا يوجد عنده وعي فينهار أمام تلك الأفكار وهذه العواطف.

إذن لحظة الانفعال هي التي تحدد أن هذه الأمة تحمل وعياً، أو طاقة حرارية.

ماذا صنع المسلمون في لحظة الانتصار والاستيلاء على كنوز كسرى وقيصر، المسلمون في هذه اللحظة، أخذوا يفكرون في الدنيا أخذوا يفكرون في أن يقتنص كل واحد منهم أكبر قدر ممكن من حطامها.

والأزمة التي مرّت بعمر بن الخطاب في تحقيق حال الأرض المفتوحة عنوة، وأن الأرض المفتوحة عنوة هل

تقسم على المقاتلين أو أنها تجعل لبيت المال، وتجعل ملكاً عاماً، هذه الأزمة تبيّن، كيف أن هذه الأمة ترددت في لحظة الانفعال، لأن وجوه المهاجرين والأنصار، هؤلاء الأبرار المجاهدون هؤلاء الذين عاشوا كل حياتهم الكفاح والجهاد في سبيل الله، هؤلاء أخذوا يصرون إصراراً مستميتاً على أن هذه الأرض يجب أن توزع عليهم، وعلى أن كل واحد منهم يجب أن ينال أكبر قدر ممكن من هذه الأرض، إلى أن أفتى علي عليه السلام بأن الأرض للمسلمين جميعاً، لمن هو موجود الآن ولمن يوجد بعد اليوم إلى يوم القيامة.

هذه اللحظات لحظات انفعال، لحظات الانفعال الانخذالية، ولحظات الانفعال الانفصالية هي التي تحدد أن الأمة هل تحمل طاقة حرارية، أو تحمل وعياً.

إذن كل وعي الأمة يحمل وراءه قدراً كبيراً من الرواسب الفكرية والعاطفية والنفسية التي لم تكن قد استؤصلت بعد؟

وربما قيل: إذن ما كان يصنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا لم تكن

قد استؤصلت هذه الرواسب؟

وجوابه: إن هذه الرواسب ليس من السهل استئصالها، لأن الدعوة الإسلامية التي جاء بها النبي ﷺ لم تكن مجرد خطوة إلى الأمام، بل كانت طفرة بين الأرض والسماء.

إذا لاحظنا حال العرب قبل الإسلام، ولاحظنا مستوى الرسالة الإسلامية نرى أن المستوى هو مستوى الطفرة بين الأرض والسماء، لا مستوى الحركات الإصلاحية التي توجد في المجتمعات العالمية، وهي مستوى الخطوة إلى الأمام، أي حركة إصلاحية تنبع من الأرض وتنبع من عبقرية الإنسان بما هو إنسان، تزحف بالمجتمع خطوة إلى الأمام لا أكثر، المجتمع كان قد وصل إلى الخطوة السابقة، في خط التقدم، وحينئذٍ من الممكن في زمن قصير أن تستأصل رواسب الخطوة السابقة، بعد الدخول في الخطوة التالية، لأن الفرق الكيفي، بين الخطوة السابقة والثانية مثلاً، فرق قليل ضئيل التشابه، بين الخطوتين تشابه كبير جداً هذا

التشابه الكبير، أو ذاك التفاوت اليسير، يعطي في المقام إمكانية التحويل، إمكانية اجتثاث تلك الأصول الموروثة من الخطوة السابقة.

لكن ماذا ترون وما تقدرون، عندما جاء النبي ﷺ إلى مجتمع متأخر يعيش الفكرة القبلية بأشد ألوانها ونتائجها، وأقسى مفاهيمها وأفكارها، جاء فألقى فيها فكرة المجتمع العالمي، الذي لا فرق فيه بين قبيلة وقبيلة، وبين شعب وشعب، وبين أمة وأمة، وقال: إن الناس سواسية كأسنان المشط.

هذه الطفرة الهائلة بكل ما تضم من تحول فكري وانقلاب اجتماعي، وتغيير في المشاعر والمفاهيم والانفعالات، هذه الطفرة لم تكن شيئاً عادياً في حياة الإنسان، وإنما كانت شيئاً هائلاً في حياته. إذن فكيف يمكن أن نتصور، أن هذا المجتمع الذي طفر بهذه الطفرة مهما كان هذا المجتمع ذكياً، وصبوراً على الكفاح ومهما كان قوياً ومؤمناً برسول الله ﷺ كيف يمكن أن نتصور في

الحالات الاعتيادية، أنه يودع تمام ما كان عنده من الأفكار والمشاعر والانفعالات، ويقلب صفحة جديدة كاملة، دون أي اصطحاب لموروثات العهد السابق، هذا غير ممكن إلاّ في فترة طويلة جداً مع أن رسول الله ﷺ لم يعش لمجتمع ودولة كمربي تربية كاملة في المدينة إلاّ عشر سنوات فقط، علماً أن جزءاً كبيراً من المجتمع الإسلامي دخل الأحداث بعد وفاة رسول الله ﷺ ومجتمع مكة الذي دخل في حظيرة الإسلام وقت فتح مكة، وقبل سنتين فقط من وفاة رسول الله ﷺ.

فكيف يمكن أن نتصور من خلال هذه الأزمنة القصيرة ومع تلك الطفرة الهائلة الكبيرة إثبات تلك الأصول.

فالأصول إذن كان من المنطقي والطبيعي أن لا تبقى وكان من المنطقي والطبيعي أيضاً أن لا تجتث إلاّ في خلال أمد طويل، وخلال عملية تستمر مع خلفاء الرسول ﷺ بعده. إلاّ أن هذه العملية قُطعت بالانحراف، بتحول خط الخلافة عن علي عليه السلام، وهذا لا يثير استغراباً، أو يسجّل

نقطة ضعف، بالنسبة إلى عمل الرسول ﷺ بل ينسجم مع الرسالة مع عظمتها وجلالتها ومع تخطيط النبي ﷺ.

فهذه هي الأمة التي تحمل طاقة حرارية، أمة غير واعية وإذا كانت تحمل هذه الطاقة وهي غير واعية، فليست بقادرة على حماية التجربة الإسلامية وعلى وضع حد لانحراف الحاكم الذي تولى الحكم، إذ بالصيغة الأصولية التي قلناها، من أن الأمة بوصفها المجموعي ليست معصومة، ما دامت تحمل طاقة حرارية فقط، ولا تحمل وعياً مستنيراً يجتث أصول الجاهلية فيها. وما دامت كذلك فهي لا تقف في وجه هذا الانحراف. وقد قلنا بأنه حتى لو أخذنا الحاكم بغير المفهوم الشيعي، مع هذا تبقى طبيعة الأشياء وطبيعة الأحداث تبرهن على أن يكون هذا الحاكم عرضة للانحراف ولتحطيم التجربة الإسلامية، وبالتالي تحطيم جميع الأصول الموضوعية والإطار العام لهذه التجربة الشريفة المباركة. فإن الحاكم أولاً هو جزء عادي من هذه الأمة التي قلنا بأنها لم تكن تحمل وعياً مستنيراً بل كانت تحمل طاقة حرارية، ولنفرض أن هذا الحاكم لم يكن

شخصاً متميزاً من هذه الأمة بانحراف خاص، وبتخطيط سابق، للاستيلاء على الحكم، لنفرض أن هذا لم يكن، وإنما هو جزء عادي من هذه الأمة، إن الحاكم يستبطن قدراً كبيراً من الأفكار الجاهلية والعواصف الجاهلية والمشاعر الجاهلية، وهذا كان واضحاً من اللحظة الأولى، وفي الحجج التي أوردها المهاجرون ضد الأنصار. وكان من الواضح أن تقييم الخلافة لم يكن تقييماً إسلامياً، فهذه الرواسب الفكرية والعاطفية للجاهلية سوف تعمل عملها في سلوك هذا الحاكم، وفي تخطيطه.

وإذا أضفنا إلى ذلك أيضاً أن الحاكم لم يكن قد هيىء أبداً لأن يكون حاكماً، وللحاكم مشاكله الخاصة وسلوكه الخاص وثقافته الخاصة، الحاكم خاصة إذا كان حاكماً في صدر دعوة جديدة ذات حرارة خاصة ثقافية جديدة، فلا بدَّ وأن يكون هذا الحاكم مهيئاً بصورة مسبقة تهيؤاً ثقافياً وعلمياً وروحياً، لأن يكون حاكماً!..

وقصدنا من عدم التهيؤ هو عدم التهيؤ الثقافي

والعلمي، بمعنى أنه لم يكن قد استوعب الإسلام، عمر نفسه كان يقول: شُغِلنا أيام رسول الله ﷺ في الأسواق والحرب!. تأتيه مشكلة فلا يعرف الجواب عنها فيبعث للمهاجرين والأنصار ليستفتيهم مرة ثانية وثالثة ورابعة، حينما يتكرر هذا المطلب منه ويقف موقفاً سلبياً تجاه المشاكل من الناحية الدينية، فيعتذر عن ذلك فيقول شغلتنا أيام رسول الله ﷺ الحرب والعمل في الأسواق.

رسول الله ﷺ لم يهيِّىء هذا الحاكم

نعم رسول الله ﷺ لم يكن قد اشتغل لتهيئة مجموعة من الأمة لتحكم الناس وإنما هيأ قادة معينين من أهل البيت عليهم السلام ليحكموا.

كان رسول الله ﷺ يعمل على خطين للتوعية: الخط الأول هو التوعية على مستوى الأمة، وهذه التوعية للأمة بوصفها رعية بالمقدار الذي تتطلبه الرعية الواعية من فهم وثقافة، وكان له خط عمل على مستوى آخر من

التوعية، للصفوة التي اختارها الله سبحانه وتعالى حتى تخلفه لقيادة هذه التجربة، كانت توعية على مستوى القيادة وعلى مستوى الحاكمية.

وهؤلاء الذين تولوا الحكم بعد رسول الله ﷺ لم يكونوا قد عاشوا على هذا المستوى للتوعية من الناحية الفكرية والثقافية، ألسنا جميعاً نعرف أن الصحابة اختلفوا في المسائل الواضحة جداً، اختلفوا في حكم سنَّةٍ كان يمارسها رسول الله ﷺ أمام أعينهم مدة طويلة اختلفوا في حكم صلاة الجنائز، هذه المسألة العبادية الصرفة البعيدة عن كل مجالات الهوى والسياسة والاقتصاد، فالاختلاف هنا اختلاف ناشىء من الجهل حقيقة، لا اختلاف ناشىء من الهوى، ليس من قبيل الاختلاف في حكم الأرض وفي حكم الغنيمة وحكم الخمس.

كل هذا ينشأ من عدم التهيئة سابقاً ومن عدم الاستعداد لممارسة الحكم ولقيادة هذه التجربة يضاف إلى ذلك أن الأمة كانت تحمل طاقة حرارية ولم تكن واعية إلى

أن الحاكم كان قاصراً أو مقصراً، يضاف إلى كل ذلك أن الإسلام كان على أبواب تحول كمي هائل، كان على أبواب أن يفتح أحضانه لأمم جديدة، لم تر النبي ﷺ ولم تسمع آية من القرآن منه على الإطلاق. تلك الأمة التي خلفها النبي ﷺ كانت تحمل طاقة حرارية، لكن بعد أن اتسعت الأمة كمياً وضمَّت إليها شعوباً كثيرة، ضمت إليها الشعب العربي بأكمله، وضمَّت إليها من الشعوب الأخرى من الفارسية والتركية والكردية والهندية والأفغانية والأوروبية وغيرها، ما بال هذه الشعوب التي لم تكن قد رأت رسول الله ﷺ ولم تسمع منه كلمة من القرآن، هل يترقب أن يكون لها وعي، أو يترقب أن يكون لها طاقة حرارية؟ تلك الطاقة، كانت نتيجة كفاح مستمر مع أشرف قائد على وجه الأرض. إن هذه الشعوب التي دخلت حظيرة الإسلام، لم تكن قد عاشت هذا الكفاح المستمر مع القائد إذن فهذا الانفتاح الهائل على الشعوب الأخرى أيضاً ضعَّف مناعة هذه الأمة، وأضعف من قدرتها على الحماية، وفتح بالتالي مجالات جديدة للقصور والتقصير أمام الحاكم.

الحاكم الذي لم يكن مهيئاً نفسياً لأن يحكم في مجتمع المدينة. كيف يكون مهيئاً نفسياً وفكرياً وثقافياً لأن يحكم بلاد كسرى وقيصر ويجتث أصول الجاهلية، الفارسية والهندية والكردية والتركية، إضافة إلى اجتثاث الجاهلية العربية، هذه الجاهليات التي كانت كل واحدة منها تحتوي على قدر كبير من الأفكار والمفاهيم الأخرى، جاهليات عديدة متضاربة فيما بينها عاطفياً وفكرياً وكلها في مجتمع واحد وفي حالة عدم وجود ضمان لا على مستوى الحاكم، ولا على مستوى الأمة؟!

لئن كان أولئك الذين خلفهم رسول الله ﷺ قد رأوا بأمِّ أعينهم، في لحظة قصيرة، تجسيداً واقعياً حياً للنظرية الإسلامية للحياة وللمجتمع في أيام رسول الله ﷺ ورأوا تصرفات رسول الله ﷺ في المجال السياسي والاقتصادي والعسكري والاجتماعي، وسمعوا من رسول الله ﷺ أنه يقول: الناس سواسية كأسنان المشط، فإن هذه الشعوب التي دخلت في الإسلام جديداً، لم تكن قد سمعت كل

هذا، بل سمعت هذا من الحكام الجدد الذين كانوا يقودون زعامة التجربة فإذا كان أمينها حاكماً منحرفاً، وكانت الأمة غير قادرة على مواجهة هذا الانحراف، وكانت على أبواب توسع هائل ضخم يضم شعوباً لا تعرف شيئاً أصلاً عن هذه النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية إنما تعرف الواقع الذي يتجسد خارجاً والذي عاشته كواقع وهو أن فاتحاً مسلماً سيطر على بلادها. إذن كان من المفروض ومن المنطق بحسب طبيعة الأشياء، أن تتحول النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية إلى نظرية أخرى وفق خط الحاكم الموجود فعلاً والذي يجسد في سلوكه وتصرفاته، حقيقة بعيدة عن الحقيقة التي عمل رسول الله ﷺ على تجسيدها في حياته، فنظرية الحكام للحكم وكما عاشوها واقعياً وسياسياً واقتصادياً كانت كفيلة بأن تطمس تلك الأطروحة الصالحة فكرياً وروحياً كما انطمست سياسياً واقتصادياً من قبل، ولذا كان أمراً طبيعياً أن يعمل قادة أهل البيت عليهم السلام على التخطيط لحماية إسلامهم من أن يندرس، وذلك عن طريق الدخول في الصراع السياسي مع هؤلاء الحكام.

الأئمة عليهم السلام دخلوا في صراع مع الخلفاء ومع الزعامات المنحرفة، دخلوا في الصراع يحملون في أيديهم مشعل تلك النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية بكل بهائها ونورها وجمالها وكمالها ولم يكونوا يستهدفون من هذا أن يعيدوا خط التجربة لأن المؤسف أن خط التجربة لم يكن بالإمكان أن يعود مرة أخرى إلى الاستقامة بعد أن انحرف، لم يكن الصراع السياسي يستهدف في المقام أن يعيد التجربة إلى خطها المستقيم أو على المدى الطويل الطويل، ولم يكن هذا هو الهدف الآني للصراع السياسي وإنما كان الهدف الآني للصراع هو أن يبثوا الوعي في المسلمين والشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام على النظرية الحقيقية للإسلام عن الحياة، عن المجتمع عن الدولة عن الاقتصاد، وعن السياسة وعن الآخرة ويبينوا لهم بصدق ما هو مفهوم الإسلام في هذه المجالات وصولاً إلى ترسيخ هذه النظرية في أذهان الناس.

صحيح أن النظرية كانت موجودة في القرآن، وكانت

موجودة في النصوص، ولكن هذا لا يكفي وحده للوصول إلى الهدف وذلك:

أولاً: لأن النظريات حينما تكون حبراً على ورق لا تكفي لأن تعطي صورة واضحة عن الحقيقة الصادقة في أذهان الناس.

ثانياً: لأن القرآن والسنَّة لم تكن قد فهمته هذه الشعوب الجديدة التي قد دخلت في الاسلام. السنة: لم يكونوا قد سمعوا عنها شيئاً وإنما سوف يسمعون عنها عن طريق الصحابة. وأما القرآن الكريم فلم يكونوا قد سمعوا شيئاً عن تفسيره أيضاً، وإنما بدأوا يسمعونه عن طريق الصحابة، فلا بدَّ حينئذٍ من تجسيد حي لهذه النظرية الإسلامية، وحيث لم يكن بالإمكان تجسيده عن طريق الحكم، كان من الضروري تجسيده عن طريق المعارضة للزعامات المنحرفة على يد علي عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام أئمة المرحلة الأولى.

دور ممارسة المرحلة الأولى

كان علي عليه السلام يعبر عن آلام الأمة وعن آمالها، ومظالمها أمام عثمان، ويعظه ويوبخه، ويذكره الله وأيام الله والآخرة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن عثمان لم يكن يتّعظ.

لماذا كان حريصاً كل الحرص على أن يبدو صراعه موضوعياً عقائدياً يستهدف النظرية لا الشخص يستهدف تثبيت دعائم نظرية حقيقية للإسلام، لا تدعيم شخصه، كان الإمام عليه السلام حريصاً على أن تكون التصورات والانعكاسات التي يعيشها الناس عن صراعه على مستوى أن صراعه صراع نظري عقائدي وليس صراعاً شخصياً لأن هذا كان من أكبر الوسائل لتثبيت حقانية هذه النظرية التي يقدمها. أليس هو يريد أن يثبت للذهنية الإسلامية أن النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية هذه لا تلك التي يطبقها الزعماء المنحرفون كيف يستطيع أن يرسخ هذا في الذهنية الإسلامية على أنه صراع عقائدي ونضالي في سبيل تثبيت النظرية،

ولهذا انتظر أمير المؤمنين عليه السلام أن يبرز الانحراف واضحاً ثم يبدأ الصراع. لأن هؤلاء الناس الغير الواعين لا يشعرون بمرارة الانحراف إلاَّ إذا دخل الإنحراف إلى بيوتهم، إلاَّ إذا مسَّ جلودهم، أما قبل هذا فلا يترقب من الأمة الغير الواعية، أن تشعر بالانحراف.

فبعدما تكشَّف الانحراف في أيام عثمان إلى درجة لم يكن بحاجة إلى صعوبة لتشعر به الأمة الغير الواعية، شعرت الأمة الإسلامية بذلك خصوصاً في السنوات الأخيرة من أيام عثمان، فدخل الإمام عليه السلام في الصراع بشكل مكشوف ليثبت للتجربة الإسلامية دعائم النظرية الأخرى، فكان عليه السلام هو رمز نظرية إسلامية للحياة الاجتماعية تختلف عن النظرية المطبقة لواقع الحياة الاجتماعية على ما سوف نشرح.

إن أمير المؤمنين عليه السلام حينما تولى الخلافة بعد مقتل عثمان، أراد أن يشرح للمسلمين بطريقته الخاصة، أن المسألة ليست بالنسبة إليه تبديل شخص بشخص آخر،

وليست مسألة فارق اسمي بين زعيم الأمس وزعيم اليوم وإنما المسألة هي مسألة اختلاف شامل كامل للمنهج، وفي كل القضايا المطروحة.

إلاَّ أنه لعلاجها وتصفيتها، كان يريد أن يبين للمسلمين ضرورة أن ينظر إليه بوصفه قائماً على الخط، وقيماً على المنهج وأميناً على الرسالة. وعنواناً لدستور جديد، يختلف عن الوضع المنحرف القائم.

لأجل هذا امتنع عن قبوله الخلافة أول الأمر، فقال لهم فكروا في غيري، واتركوني وزيراً لمن تستخلفونه، فأنا لكم وزير خير مني أمير، يعني على مستوى حياة الدعة والكسل، على مستوى الرخاء واليسر، على مستوى الحياة الفارغة من المسؤولية، على مستوى هذه الحياة أنا وزير خير مني أمير، لأني حينما أكون أميراً سوف أرهقكم، سوف أتعبكم سوف أفتح أمامكم أبواب مسؤوليات كبرى تجعل ليلكم نهاراً، وتجعل نهاركم ليلاً، هذه الهموم التي تجعلكم دائماً وأبداً تعيشون مشاكل الأمة في كل أرجاء

العالم الإسلامي، هذه الهموم التي سوف تدفعكم إلى حمل السلاح ـ من دون حاجة مادية ـ لأجل تطهير الأرض الإسلامية من الانحراف الذي قام عليها.

اتركوني وزيراً أكون أفضل لكم على مستوى هذه الحياة مني وأنا أمير. لأني كوزير لا أملك أن أرسم الخط، أو أن أضع المخطط، وإنما أنصح وأسير وحينئذٍ يبقى الوضع مستمراً، أصروا عليه بأن يقبل الخلافة، ففرض عليهم الشروط فقبلوها إجمالاً دون أن يسألوه التوضيح، أعطاهم فكرة عن أن عهده هو عهد منهج جديد للعمل السياسي والاجتماعي والإداري، فقبلوا هذا العهد، وكان هذا سبباً في أن ينظر المسلمون من اللحظة الأولى، إلى أن علياً بن أبي طالب عليه السلام بوصفه نقطة تحول في الخط الذي وجد بعد النبي صلى الله عليه وآله، لا بوصفه مجرد خليفة، فانتعشت مع هذا العهد الجديد آمال كثيرة.

وحينما بويع علي عليه السلام، وكانت أكثر الصعاب التي واجهها بعد بيعته، هو انشقاق معاوية وتخلف الشام بكامله

لابن أبي سفيان عن الانضمام إلى بيعته. هذا التناقض، شق المجتمع الإسلامي في الدولة الإسلامية إلى شقين، ووجد في كل منهما جهاز سياسي وإداري لا يعترف بالآخر. ومنذ البدء، كان هناك فوارق موضوعية واضحة، بين وضع علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي والإداري، ووضع معاوية السياسي والإداري، تجعل هذه الفوارق معاوية، أحسن موقفاً وأثبت قدماً، وأقدر على الاستمرار في خطه من إمام الإسلام عليه السلام.

هذه الفوارق الموضوعية لم يصنعها الإمام عليه السلام وإنما كانت نتيجة تاريخ:

فأولاً: كان معاوية يستقل بإقليم من أقاليم الدولة الإسلامية، ولم يكن لعلي أي رصيد أو قاعدة شعبية في ذلك الإقليم على الإطلاق، لأن هذا الإقليم، قد دخل في الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وانعزال علي عن خط العمل، وكان هذا الإقليم، قد دخل ودشن حياته الإسلامية بولاية يزيد أخي معاوية، ثم بعد بولاية معاوية، وعاش

الاسلام من منظار آل أبي سفيان، ولم يسمع بعلي عليه السلام، ولم يتفاعل مع الوجود الإسلامي والعقائدي، هذا الإمام العظيم لم يكن يملك شعاراً له رصيدٌ أو قاعدة شعبية في المجتمع الذي تزعمه معاوية، وحمل لواء الانشقاق فيه، في حين، العكس فإن شعار معاوية كان يملك رصيداً قوياً وقاعدة قوية في المجتمع الذي تزعمه الإمام عليه السلام لأن معاوية كان يحمل شعار الخليفة القتيل، والمطالبة بدمه.

هـذا كـان أمـر ذلـك المجتمـع الـذي تـزعمـه علي عليه السلام، وكان لهذا الخليفة القتيل أخطبوط في هذا المجتمع وقواعد. وهكذا كان شعار ابن أبي سفيان يلتقي مع وجود ومع قاعدة ورصيد في داخل مجتمع أمير المؤمنين عليه السلام بينما لم يكن شعار علي يلتقي مع قاعدة ورصيد في داخل مجتمع معاوية.

وثانياً: كانت طبيعة المهمة تميز معاوية عن علي بن أبي طالب عليه السلام، لأن أمير المؤمنين عليه السلام بوصفه الحاكم الشرعي، والمسؤول عن الأمة الإسلامية كان يريد

أن يقضي على هذا الانشقاق الذي وجد في جسم الأمة الإسلامية وذلك بشخصية هؤلاء المنحرفين، وإجبارهم بالقوة على انضمامهم إلى الخط الشرعي، وكان هذا يستدعي الدخول في الحرب، التي تفرض على علي عليه السلام الطلب من العراقي أن يخرج من العراق، تاركاً أمنه ووحدته واستقراره، ومعيشته ورخاءه ليحارب أناساً شاميين لم يلتق معهم بعداوة سابقة، وإنما فقط بفكرة أن هؤلاء انحرفوا، ولا بدّ من إعادة أرض الشام للمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، فكان موقف علي عليه السلام يتطلب ويفترض ويطرح قضية الهجوم على أناس لا يملكون - في غالبيتهم - الوعي لخطورة تراخيهم على قمع هذا الانحراف، انطلاقاً من عدم استيعابهم لأبعاده؟!

في حين أن معاوية بن أبي سفيان، يكتفي من تلك المرحلة، بأن يحافظ على وجوده في الشام، ولم يكن يفكر (ما دام أمير المؤمنين) أن يهاجم أمير المؤمنين، وأن يحارب العراق ويضم العراق إلى مملكته، وإنما كان يفكر فقط، في أن يحتفظ بهذا الثغر من ثغور المسلمين، حتى

تتهيأ له الفرص والمناسبات والظروف الموضوعية، بعد ذلك يتآمر على الزعامة المطلقة في كل أرجاء العالم الإسلامي. فمعاوية لم يكن يقول للشامي، اترك استقرارك ووحدتك، واذهب إلى العراق محارباً، لأن هذا الشخص خارج عن طاعتي، ولكن كان علي عليه السلام يقول هذا للعراقي، لأن علياً عليه السلام كان يحمل بيده مسؤولية الأمة، ومسؤولية إعادة وحدة المجتمع الإسلامي، بينما كان كل مكسب معاوية وهمّه أو قصارى أمله، أن يحافظ على هذا الانشقاق ويحافظ على هذه التجزئة التي أوجدها في جسم المجتمع الإسلامي، وشتان بين قضية الهجوم حينما تطرح وقضية الدفاع.

وثالثاً: كان هناك فرق آخر بين معاوية والإمام عليه السلام وهو أن معاوية، كان يعيش في بلد لم يكن قد نشأت فيه زعامات سياسية طامحة إلى الحكم والسلطان من ناحية ولم يكن فيه أناس ذوي سابقة في الإسلام، ممن يرى لنفسه الحق أن يساهم في التخطيط وفي التقدير، وفي حساب الحاكم، وفي رسم الخط، لم يكن هكذا، الشام

أسلمت في عهد معاوية وأخيه، كلهم كانوا نتيجة لإسلام معاوية ولإسلام أخي معاوية، ولإسلام من استخلف معاوية على الشام ولم يكن قد مني بتناقضات من هذا القبيل.

أما علي عليه السلام فكان يعيش في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله كان يعيش في حاضرة الإسلام الأولى التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وآله وعاش بعد ذلك أبو بكر، وعاش بعد ذلك عمر وعثمان، حتى قتلا، ومن ناحية كان يواجه كثيراً ممن يرون أن من حقهم أن يساهموا في التخطيط، وأن يشتركوا في رسم الخط، كان يواجه علي عليه السلام أشخاصاً يرونه نداً لهم، غاية الأمر أنه ندّ أفضل، ند مقدم، لكنهم صحابة كما أنه هو صحابي عاش مع النبي صلى الله عليه وآله وعاشوا مع النبي صلى الله عليه وآله.

طبعاً إننا نعلم أيضاً بأن خلافة علي كانت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بعشرين سنة، وهذا معناه، أن ذلك الامتياز الخاص الذي كان يتمتع به أمير المؤمنين في عهد الرسول صلى الله عليه وآله كالنجم لا يطاول، ذاك الامتياز الخاص كان

قد انتهى مفهومه وتضاءل أثره في نفوس المسلمين، الناس عاشوا عشرين سنة يرون علياً مأموماً، يرونه منقاداً، يرونه جندياً بين يدي أمير. هذا الإحساس النفسي خلال عشرين سنة أذهب تلك الآثار التي خلفها عهد النبوة، وهكذا كان علي عليه السلام يُنظر إليه بشكل عام، عند الصحابة الذين ساهموا في حل الأمور وعقدها وكانوا يمشون في خط السقيفة، هؤلاء الصحابة الذين قدموا للإسلام في صدر حياتهم، وكانوا قد قدر لهم بعد هذا أن يمشوا في خط الانحراف، هؤلاء كانوا ينظرون إلى علي الأخ الأكبر، الزبير صحيح كان يخضع لعلي عليه السلام لكن كان يخضع له كالأخ الأكبر لا يرى أن إسلامه مستمد منه، هذه الحقيقة الثانية الثابتة التي كانت واضحة على عهد النبي صلى الله عليه وآله حُرِّفت خلال عهد الانحراف، ولهذا كان الزبير يعترف بأن علياً أفضل منه، لكنه لا يرى نفسه مجرد آلة ومجرد تابع يجب أن يؤمر فيطيع، فكان هناك أناس من هذا القبيل، هؤلاء يريدون أن يشتركوا في التخطيط ويشتركوا في رسم الخط، في ظرف هو أدق ظرف وأبعده عن عقول هؤلاء القاصرين.

رابعاً: كانت توجد هناك الأطماع السياسية والأحزاب السياسية التي تكوّنت، واستفحلت نتيجة لما سمي بالشورى في تعيين الرجال الستّة الذين عيّنهم عمر ليختاروا من بينهم خليفة، هذه الأحزاب السياسية كان يفكر في أمرها ويفكر في مستقبلها ويفكر في أنه كيف يستفيد أكبر قدر ممكن من الفائدة في خضم هذا التناقض، وهذا بخلاف معاوية لم يكن قد مني بصحابة أجلاّء يعاصرونه ويقولون له نحن صحابة كما أنت صحابي، بل كان أهل الشام أسلموا في عهده وعهد أخيه، لم ير أحد منهم رسول الله ﷺ ولم يسمع أحد القرآن إلاّ عن طريق معاوية، إذن كانت حالة الاستسلام في المجتمع الشامي بالنسبة إليه لا يوجد ما يناظرها بالنسبة إلى الإمام عليه السلام في مجتمع المدينة والعراق.

خامساً: كان هناك فرق آخر بين الإمام عليه السلام ومعاوية، وحاصل هذا الفرق هو أن الإمام عليه السلام كان يتبنى قضية هي في صالح الأضعف من أفراد المجتمع، وكان معاوية يتبنى قضية هي في صالح الأقوى من أفراد

المجتمع، أمير المؤمنين عليه السلام كان يتبنى الإسلام بما فيه من قضايا العدالة الاجتماعية التي يمثلها النظام الاقتصادي للإسلام، وهذه القضايا لم تكن في صالح الأقوى، بل كانت في صالح الأضعف، ومعاوية كان يمثل الجاهلية بفوارقها وعنفوانها وطبقاتها، وهذا لم يكن في صالح الأضعف بل كان في صالح الأقوى، وذلك أنه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حينما دخل العراق والشام وبقية البلاد في داخل المجتمع الإسلامي، لم يقدر الخلفاء الذين تزعموا زعامة المسلمين على تذويب التنظيم القبائلي الذي كان موجوداً في هذه البلاد، بل بقي التنظيم القبائلي سائداً وبقي زعيم كل قبيلة هو الشخص الذي يرتبط كهمزة الوصل بين قبيلته وبين السلطان. وهذا التنظيم القبائلي بطبيعته، يخلق جماعة من الزعماء ومن شيوخ هذه القبائل الذين لم يربِّهم الإسلام في المرتبة السابقة ولم يعيشوا أيام النبوة عيشاً صحيحاً مما جعل من هؤلاء طبقة معينة ذات مصالح، وذات أهواء وذات مشاعر في مقابل قواعدها الشعبية مما يوفر لهم أسباب النفوذ والاعتبار.

الآن تصوروا مجتمعاً إسلامياً تركه الخلفاء وهو يعم بالتقسيمات القبلية بمعنى أن كل قبيلة كانت تخضع إدارياً وسياسياً لزعامة تلك القبيلة التي تشكّل كما قلنا همزة وصل بين القبيلة وبين الحاكم الذي يسهل عليه أن يرشي رؤساء هذه القبائل بقدر الإمكان وكان عاملاً من عوامل القوة بالنسبة إلى معاوية، هذه الظروف الموضوعية لم يصنعها الإمام عليه السلام وإنما هي صنعت خلال التاريخ وأوجدت لمعاوية مركزاً قوياً ووجد للإمام مركز ضعف ولولا براعة التضحية وكفاءته الشخصية ورصيده الروحي في القطاعات الشعبية الخاصة الواسعة، لولا ذلك لما استطاع عليه السلام أن يقوم بما مرّ به نفسه من حروب داخلية خلال أربع سنوات.

هكذا بدأ الإمام بخلافته ودشّن عهده، وبدأ الانقسام مع هذا العهد على يد معاوية بن أبي سفيان، وأخذ الإمام يهيىء المسلمين للقيام بمسؤولياتهم الكبيرة للقيام بدورهم في تصفية الحسابات السابقة، في تصفيتها على المستوى المالي، على المستوى الاقتصادي، على المستوى

الاجتماعي على المستوى السياسي والإداري أيضاً، كل ذلك كان يحتاج إلى الكفاح والقتال فأخذ يدعو الناس إلى القتال وخرجوا إليه فعلاً. لقد درسنا إلى هنا علياً مع معاوية بحسب ظروفه الموضوعية، فلا بدَّ وأن ندرس الذهنية العامة للمسلمين أيضاً، كيف كان يُفسر هذا الخلاف الموجود بين علي ومعاوية.

الذهنية العامة للمسلمين بدأت تفسر هذا الخلاف، بأنه بين خط خلافة راشدة، وبين شخص يحاول الخروج على هذه الخلافة، كانوا ينظرون إلى علي بشكل عام على أنه هو الخليفة الراشد، الذي يريد أن يحافظ على الإسلام، ويحافظ على خط القرآن في حين أن معاوية يحاول أن يتآمر على هذا المفهوم. استطاع أمير المؤمنين عليه السلام أن يثبت هذا الانطباع بالرغم من كل الظروف الموضوعية التي قلناها، في ذهن القاعدة الشعبية الواسعة، في كل أرجاء العالم الإسلامي، عدا القطر الذي كان يرتبط بمعاوية، وهذه الذهنية هي التي كانت تصبغ المعركة بين علي ومعاوية بطابع الرسالة، كأن تعطيه معنى رسالياً. وكانت تفسر هذه

المعركة بأنها معركة بين الجاهلية والإسلام، بين فكرين، بين هدفين، وليس بين زعامتين وشخصيتين، إلاّ أن الأمر تطور إلى الأسوأ حيث إن المسلمين بدأوا يشكون شكاً واسع النطاق، بأن المعركة بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين معاوية بن أبي سفيان معركة رسالية.

من الصعب جداً أن نتصور أنه كيف يمكن للمسلمين أن يشكوا في أن المعركة القائمة بين إمام الورع والتقى والعدالة، وبين شخص خائن جاهلي منحرف عدو رسول الله صلى الله عليه وآله كانت معركة رسالية إلاّ أني لا أشك في أن عدداً كبيراً من المسلمين على مرّ الزمن في عهد خلافة أمير المؤمنين بدأ يشك في أن هذه المعركة أهي رسالية حقيقية أو غير رسالية وهنا يجب أن نعرف أن المسلمين الذين شكوا من هم. إنهم أولئك الذين عرفناهم عقيب وفاة الرسول صلى الله عليه وآله بشخص المبادىء التي طرحها صلى الله عليه وآله، هم أولئك المسلمون الذين خلفهم الرسول فكانت خير أمة أخرجت للناس، على مستوى إيمانهم وطاقتهم الحرارية وإشعاعهم وشحنهم من النبي صلى الله عليه وآله، ولكن لم يكن لهم من

الوعي العقائدي الراسخ إلاّ شيء قليل، هذا المعنى شرحناه وبيّنّاه وبيّنّا جهاته وقلنا إن الأمة لم تكن على مستوى الوعي وإنما كانت على مستوى الطاقة الحرارية، إذن فنحن لن نتوقع فيها أن تبقى مشتعلة، وتبقى على جذوتها وحرارتها بعد وفاة الرسول ﷺ، إذن يجب أن نفكر في أن هذه الطاقة الحرارية قد تضاءلت بدرجة كبيرة وحتى تلك الصبابة من الوعي تلك الجذور من الوعي التي كان رسول الله ﷺ قد بدأ بها كي يواصل بعد هذا خلفاؤه المعصومون عملية توعية الأمة، حتى تلك البذور قد فتت، وأخفقت ومنع بعضها عن الإثمار، وبقي بعضها الآخر بذوراً منقسمة أيضاً.

وحينما نتصور الأمة الإسلامية بهذا الشكل من ناحية أخرى يجب أن نتصور مفهوم المسلمين عن معاوية، نحن الآن ننظر إلى معاوية بعد أن استكمل حظه من الدنيا، وبعد أن دخل الكوفة وصعد على منبر علي بن أبي طالب عليه السلام وقال إني لم أحاربكم لكي تصوموا أو تصلوا وإنما حاربتكم لكي أتأمّر عليكم، بعد أن أعلن بكل صراحة ووقاحة عن هدفه، وبعد أن صرح بكل برودة شعار الخليفة المظلوم

وشعار الخليفة القتيل، دخل عليه أولاد عثمان بن عفان وقالوا له: لقد جعلنا هذا الأمر وتم الأمر لك يا أمير المؤمنين، فما بالك لا تقبض على قتلة أبينا، قال: أو لا يكفيكم أنكم صرتم حكّام المسلمين.

نحن ننظر إلى معاوية بعد أن ارتكب الفظائع وغير أحكام الشريعة وأبدع في السنة، ننظر إلى معاوية بعد أن استخلف يزيد ابنه على أمور المسلمين، وبعد أن قتل مئات من الأبرار والأخيار، ننظر إلى معاوية بعد أن تكشّفت أوضاعه، لكن فلنفرض أن شخصاً ينظر إلى معاوية قبل أن تكشف له هذه الأوضاع، لنفترض أن أولئك الأشخاص يعيشون في إطار الأمة الإسلامية وقتئذٍ، معاوية ماذا كان يكشف عن أوضاعه وقتئذٍ على المسلمين، ماذا كان من أوراق معاوية مكشوفاً وقتئذٍ؟ كان معاوية شخصاً قد مارس عمله الإداري والسياسي بعد وفاة رسول الله ﷺ بأقل من سنة، خرج إلى المدينة وذهب إلى الشام كعامل عليها، وبقي معاوية هناك مدللاً محترماً معززاً، وبعد هذا جاء عثمان فوسع من نطاق ولاية معاوية، وضمَّ إليه عدة بلاد

أخرى، إضافة إلى الشام، ولم يطرأ أي تغيير في ابن أبي سفيان، فمعاوية لم يكن شخصاً مكشوفاً، ثم دخل الصراع لأول مرة تحت شعار الأخذ بالثأر لدم عثمان، هذا الشعار الذي أخذه معاوية وكان يبدو للبسطاء من الناس وكثير من المغفلين، كان شعاراً له وجهة شرعية، كان يقول بأن عثمان قتل مظلوماً، وعثمان بالرغم من أنه خان الأمانة من استهزاء بالإسلام، وبالرغم من أنه صيَّر الدولة الإسلامية إلى دولة عشيرة وقبيلة، وبالرغم من أنه ارتكب الجرائم التي أدنى عقابها القتل، بالرغم من هذا، ابن أبي سفيان يقول: قُتِل عثمان مظلوماً. كثير من الناس البسطاء أيضاً يقولون: عثمان قتل مظلوماً. فلا بُدَّ من القصاص، فيا علي إن كنت قادراً فأعطنا قاتليه، وإن كنت عاجزاً، فأنت عاجز عن أن تطبق أحكام الإسلام فاعتزل الحكم لأن الخليفة يشترط فيه القدرة على تطبيق أحكام الإسلام.

هذا هو الشعار الذي أبرزه معاوية في مقابل الإمام عليه السلام، والإمام عليه السلام في مقابل هذا الشعار لم يكن يريد بأن يصرح بأن عثمان كان جديراً بأن يقتل، أو كان

يجب أن يقتل، لأنه لو صرَّح بهذا، لتعمَّق اتهام معاوية وطوَّر التهمة من قول أعطني، إلى قول: إنك قاتل عثمان، فبقي شعار معاوية شعاراً مضللاً إلى حد كبير.

ثم لا بدَّ وأن نلاحظ الجهود والأتعاب والتضحيات التي قام بها المسلمون في كنف علي عليه السلام. لا أدري هل إن أحداً جرَّب أو لم يجرب هذا الإيحاء النفسي، حينما تكون المهمة صعبة على الإنسان وثقيلة، حينئذٍ توسوس له نفسه بالتشكيك في هذه المهمة بمختلف التشكيكات، فحينما يصعب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حينئذٍ يأخذ بالوسوسة، من قال بأن هذا الرجل مبطلٌ، من قال إنه قادر على هذا الكلام من قال إن شروط الأمر بالمعروف تامة، وهكذا يوسوس لأجل أن يستريح من هذه المهمة، لأجل أن يلقي عن ظهره هذا العبء الكبير، كل إنسان يميل بطبعه إلى الدعة، إلى الكسل إلى الراحة إلى الاستقرار، فإذا وضعت أمامه مهام كبيرة، حينئذٍ، إذا وجد مجالاً للشك في هذه المهمة فسوف يكون عنده دافع نفسي إلى أن يشك، يشك لأجل أنه يريد أن يشك، ويشكّ لأجل

أنه من مصلحته أن يشك، وهذا كان موجوداً على عهد الإمام عليه السلام.

العراقيون قدَّموا من التضحيات شيئاً كثيراً بذلوا أموالهم ونفوسهم ودماءهم في حروب ثلاثة، آلاف من العراقيين ماتوا وقتلوا، عشرات الآلاف من الأطفال يتموا، آلاف من النساء أصبحن أرامل، آلاف من البيوت والعوائل تهدمت، كثير من المدن والقرى غارت عليها جيوش معاوية، كثير من هذه المآسي والويلات حلَّت بهؤلاء المسلمين، نتيجة ماذا ولأجل ماذا؟ لأجل أن يزداد مالهم؟ لا، لأجل أن يزداد جاههم؟ لا، وإنما لحساب الرسالة، لحساب الخط، لحساب المجتمع الإسلامي، لأجل هذا الهدف الكبير، وهذا هدف كبير أعز من كل النفوس وأعز من كل الدماء وأعز من الأموال. لكن نحن يجب أن نقدر موقف هؤلاء الذين ضحُّوا وبذلوا وقدموا، ثم أصبحوا يشككون لأن من مصلحتهم أن يشككوا، وأصبح الإمام يدفعهم فلا يندفعون، يحركهم، فلا يتحركون، لماذا؟ لأن من مصلحتهم أن يعطوا للمعركة مفهوماً جديداً، وهو أن

القصة قصة زعامة علي أو معاوية، ما بالنا وعلي ومعاوية؟ إما أن يكون هذا زعيماً وإما أن يكون ذلك زعيماً. نحن نقف على الحياد ونتفرج، فإما أن يتم الأمر لهذا أو لذاك، هذا التعبير بداياته، وهذا التفسير الذي أوحت مصلحة هؤلاء وهؤلاء هو الذي كان يشكل عقبة دون أن يتحركوا دون أن يتحرك هؤلاء من جديد إلى خط الجهاد، هذا التعبير هو الذي جعل أمير المؤمنين عليه السلام يبكي من على المنبر، وينعى أصحابه الذين ذهبوا، أولئك الذين لم يشكوا في خطه وفيه لحظة، أولئك الذين كانوا ينظرون إليه كامتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله، من قبيل عمار وأمثاله، هذا عمار الذي وقف بين الصفين، ووضع سيفه على بطنه، وقال: اللهم إنك تعلم أن لو كان رضاك أن أغمد هذا في بطني حتى أخرجه من ظهري لفعلته، اللهم إنك تعلم أني لا أعلم رضاك إلاَّ في قتال هؤلاء المائعين المنحرفين، كان يبكي لأمثال عمار، لأن عمار وأمثاله كانوا قد ارتفعوا فوق هذه الشكوك، قد طلَّقوا مصالحهم الشخصية لمصلحة الرسالة، كانوا قد غضوا النظر عن كل الاعتبارات الخاصة في سبيل

حماية كيان الإسلام، وفي سبيل إعادة مجد المجتمع الإسلامي ووحدة المجتمع الإسلامي إلى هؤلاء.

أصبح هؤلاء الذين كانوا يفكرون في الهموم الكبيرة يفكرون في الهموم الصغيرة، أصبحوا يفكرون في قضاياهم، يجب أن لا نعتب عليهم، نحن أسوأ منهم فنحن لم نرتفع لحظة هكذا ونهبط، وهؤلاء ارتفعوا لحظة ثم هبطوا. هؤلاء خرجوا من بلادهم وطلقوا نساءهم وأطفالهم وأموالهم في سبيل الله، وفي سبيل قضية ليس لهم ربح مادي فيها. هؤلاء فعلوا هذا ساعة ثم أدركهم الشيطان، أما نحن فلا ندري إذا وقفنا مثل هذا الموقف هل نصمد ولو ساعة أو نبقى مكاننا، على أي حال هؤلاء كانوا ثلة، لم يكونوا عمار بن ياسر، هؤلاء بدأ الشك يتسرب إلى نفوسهم، بدأوا يشكون في هذا الإمام عليه السلام الصالح حتى تمنى الموت، لأن الإمام عليه السلام أصبح يحس أنه انقطع عن هؤلاء، وأصبح منفصلاً عنهم. إنهم أصبحوا لا يفهمون أهداف رسالته. ومن أمرّ ما يمكن أن يقاسيه زعيم أو قائد أن يعيش في جماعة لا تتفاعل معه فكرياً، ولا تعيش مع

أهدافه ولا مع خطه، مع إنسان يبذل كل ما لديه في سبيلهم، وهم لا يحسون أن كل هذا في سبيلهم، وإنما يشكون فيه، في نيته، هذا هو الامتحان العسير الذي قاساه أفضل الصلاة والسلام عليه، لكن بالرغم من كل هذا الامتحان يحاول أن يبث من روحه الكبير في هذا المجتمع المتفتت الذي بدأ يتوقف. كان يحاول أن يبث فيهم من روحه، إلى أن خرَّ شهيداً في مسجد الكوفة.

أشأم ليلة

- ١ -

الليلة التي اغتيل فيها علي بن أبي طالب هي أشأم ليلة بعد يوم توفي فيه رسول الله ﷺ، فاليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ كان اليوم الذي خلف فيه النبي ﷺ تجربته الإسلامية في مهب القدر، في رحبة المؤامرات التي أتت عليها بعد برهة من الزمن، واليوم الذي اغتيل فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان اليوم الذي قضى على آخر أمله في إعادة خط تلك التجربة الصحيحة، هذا الأمل الذي كان لا يزال يعيش في نفوس المسلمين الواعين متجسداً في شخص هذا الرجل العظيم، الذي عاش منذ اللحظة الأولى هموم الدعوة وآلامها واكتوى بنارها وشارك في بنائها لبنة

لبنة... وأقام صرحها مع أستاذه ﷺ مدماكاً فوق مدماك.

هذا الرجل الذي كان يعبر عن كل هذه المراحل بكل همومها ومشاكلها وآلامها.

هذا الرجل هو الذي كان يمثل هذا الأمل الوحيد الذي بقي للمسلمين الواعين في أن تسترجع التجربة خطها الواضح الصريح وأسلوبها النبوي المستقيم.. حيث إن الانحراف في أعماق هذه التجربة كان قد طغى وتجبَّر واتَّسع بحيث لم يكن هناك أي أمل في أن يقهر هذا الانحراف.. اللهم إلاَّ على يد رجل واحد كعلي بن أبي طالب عليه السلام ولهذا كانت حادثة اغتيال هذا الإمام العظيم.. حينما خرَّ صريعاً تقويضاً حقيقياً لآخر أملٍ حقيقي في قيام مجتمع إسلامي صحيح على وجه الأرض إلى يوم غير معلوم، وأجل غير محدود.

كان هذا الاغتيال المشؤوم عقيب حكم مارسه الإمام عليه السلام طيلة أربع أو خمس سنوات تقريباً، حيث بدأ

منذ اللحظة الأولى لتسلم زمام الحكم عقلية التغيير الحقيقية في كيان هذه التجربة المنحرفة وواصل سعيه في سبيل إنجاح عملية التغيير، واستشهد وخرَّ صريعاً بالمسجد وهو في قمة هذه المحاولة أو في آخر محاولة إنجاح عملية التغيير وتصفية الانحراف الذي كان قد ترسَّخ في جسم المجتمع الإسلامي متمثلاً في معسكر منفصل عن الدولة الإسلامية الأم.

والظاهرة الواضحة في هذه الأربع أو الخمس سنوات التي مارس فيها الإمام عليه السلام عملية الحكم وإلى أن خرَّ صريعاً في سبيل إقامة العدل على الأرض، كان غير مستعد بأي شكل من الأشكال وفي أي صيغة من الصيغ لتقبل أنصاف الحلول بالنسبة إلى تصفية هذا الانحراف أو لتقبل أي معنى من معاني المساومة أو المعاملة على حساب هذه الأمة التي كان يرى بكل حرقة وألم أنها تهدر كرامتها وتباع بأرخص ثمن.

هذه الظاهرة تسترعي الانتباه سياسياً من ناحية

وتسترعي الانتباه فقهياً من ناحية أخرى.

ـ أما من الناحية السياسية فقد استرعت انتباه أشخاص معاصريه للإمام عليه السلام واسترعت انتباه أشخاص حاولوا أن يحللوا ويدرسوا حياة الإمام عليه السلام.

فقد لوحظ على الإمام أن عدم تقبله بأي شكل من الأشكال لهذه المساومات وأنصاف الحلول كان يُعَقّد عليه الموقف ويثير أمامه الصعاب ويرسخ المشاكل ويجعله عاجزاً عن مواجهته لمهمته السياسية والمضي بخط تجربته إلى حيث يريد.

فمثلاً: ذاك الشخص الذي جاء إليه بعقلية هذه المساومات واقترح عليه أن يبقي معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام برهة من الزمن قائلاً: إن بإمكانك إبقاء معاوية والياً على الشام برهة من الزمن وهو في هذه الحالة سوف يخضع ويبايع وبعد هذا يكون بإمكانك استبداله أو تغييره بأي شخص آخر بعد أن تكون قد استقطبت كل أطراف الدولة وقد تمت لك البيعة والطاعة في كل أرجاء العالم

الإسلامي، فاشتر بإبقاء هذا الوالي أو ذلك الوالي، هذا الحاكم أو ذلك الحاكم، بإبقاء هذه الثروات المحرمة في جيب هذا السارق أو في جيب ذلك السارق برهة من الزمن ثم بعد هذا يمكنك أن تصفي كل هؤلاء الولاة الفجرة وترجع كل هذه الثروات المحرمة إلى بيت المال.

فالإمام عليه السلام في جواب هذا الشخص، رفض هذا المنطق واستمر في خطه السياسي يرفض كل مساومة ومعاملة من هذا القبيل، ومن هنا قال معاصروه، وقال غير معاصرين أنه كان بإمكانه أن يسجل نجاحاً كبيراً، وأن يحقق توفيقاً من الناحية السياسية أكثر، لو أنه قبل أنصاف الحلول، ولو أنه مارس هذا النوع من المساومات ولو بشكل مؤقت.

ـ أما من الناحية الفقهية فهي ناحية التزاحم، الفقه يقول: بأنه إذا توقف واجب أهم على مقدمة محرمة فلا بد من الحفاظ على ذلك الواجب الأهم، وفي سبيل حرمة المقدمة لا يجوز تبرير ترك الواجب الأهم، حينما يقال ذلك

إذا توقف إنقاذ نفسٍ محترمة من الغرق على اجتياز أرض مغصوبة لا يرضى صاحبها باجتيازها فلا بدَّ من اجتيازها حيث تسقط هنا حرية هذا المالك وعدم رضاه، لأن النتيجة أهم من هذه المقدمة، كما فعل رسول الله ﷺ في بعض غزواته مثالاً مشابهاً لهذا المقال، حيث كان الجيش الإسلامي مضطراً إلى الخروج من المدينة عن طريق معين، وهذا الطريق كان فيه مزرعة لأحد الصحابة، وكان لا بدَّ للجيش حينما يمر على هذه المزرعة وبحكم طبيعة مروره كجيش من أن يتلف كثيراً من محاصيل هذه المزرعة ويصيبها بأضرار، فصاحب المزرعة ما هان عليه أن يقدم هذه الأضرار في سبيل الله وفي سبيل الرسالة.. احتج على ذلك وصرخ ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: مزرعتي ومالي، فلم يجبه رسول الله ﷺ وأصدر أوامره إلى الجيش، فمشى في هذه المزرعة حتى لم يبق في هذه المزرعة شيء مما كان يخاف تلفه صاحب المزرعة إلاَّ وتلف.

كل ذلك لأن النتيجة كانت أهم من المقدمة كان هذا الجيش يسير لأجل أن يغير وجه الدنيا ولأجل تغيير وجه

الدنيا إذا تلف مزرعة، إذا ضاعت هناك ثروة صغيرة لشخص، في سبيل أن يحفظ مقياس توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل، فهذا أمر صحيح ومعقول من الناحية الفقهية فمن الناحية الفقهية دائماً يقرر أن الواجب إذا توقف على مقدمة محرمة وكان ملاك الواجب أقوى من ملاك الحرمة، فلا بدَّ أن يقدم الواجب على الحرام.

وعلى هذا الضوء حينئذٍ تثار هذه القضية في هذه الظاهرة التي استوضحناها في حياة أمير المؤمنين عليه السلام كحاكم.

وهي أنه لماذا لم يطبق هذه القاعدة في سبيل استباحة كثير من المقدمات المحرمة، أليس إجماع الرأي عليه، أليس تملكه زمام قيادة مجتمع إسلامي، أليس هذا أمراً واجباً محققاً لمكسب إسلامي كبير، لأنه هو الذي سوف يفتح أبواب الخيرات والبركات ويقيم حكومة الله على الأرض؟...

إذن فلماذا في سبيل تحقيق هذا الهدف إذا توقف هذا

الهدف على مقدمة محرمة من قبيل إمضاء ولاية معاوية بن أبي سفيان برهة من الزمن، أو إمضاء الأموال المحرمة التي نهبها آل أمية، أو غيرهم من الأسر التي وزّع عليها عثمان بن عفان أموال المسلمين؟...

لماذا لا يكون جائزاً حينئذٍ على أساس توقف الواجب الأهم على ذلك؟...

الواقع هو أن الإمام عليه السلام كان لا بدّ له أن ينهج هذا الطريق ولم يكن بإمكانه كقائد رسالي يمثل الإسلام وأهدافه لم يكن بإمكانه أن يقبل هذه المساومات وأنصاف الحلول ولو كمقدمة وليس قانون باب التزاحم الفقهي هنا صالحاً للانطباق على موقف أمير المؤمنين عليه السلام وذلك بعد أخذ النقاط التالية بعين الاعتبار:

النقطة الأولى: أنه لا بدّ وأن يلحظ في المقام أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يريد أن يرسخ قاعدة سلطانه في قطر جديد من أقطار العالم الإسلامي وهذا القطر هو العراق.

وكان شعب العراق وأبناء العراق مرتبطين روحياً

وعاطفياً مع الإمام عليه السلام، ولكن لم يكن شعب العراق ولا أبناء العراق يعون رسالة علي عليه السلام وعياً حقيقياً كاملاً، ولهذا كان الإمام بحاجة إلى أن يبني تلك الطليعة العقائدية، ذلك الجيش العقائدي الذي يكون أميناً على الرسالة وأميناً على الأهداف وساعداً له ومنطلقاً بالنسبة إلى ترسيخ هذه الأهداف في كل أرجاء العالم الإسلامي.

والإمام عليه السلام لم يكن يملك هذه القاعدة بل كان بحاجة إلى أن يبنيها؛ إذن كيف يبني هذه القاعدة؟

هل يمكن أن يبني هذه القاعدة في جو من المساومات وأنصاف الحلول؟ حتى لو كانت هذه المساومات وأنصاف الحلول جائزة شرعاً إلاَّ أن جوازها الشرعي لا يؤثر في هذه الحقيقة النفسية الواقعية شيئاً وهي أن شخصاً لا يمكن أن يعيش في جو من المساومات وأنصاف الحلولِ فيكتسب روحية أبي ذر أو يكتسب روحية عمار بن ياسر، روحية الجيش العقائدي الواعي البصير بأن المعركة ليست للذات وإنما هي للأهداف الكبيرة التي هي أكبر من الذات.

هذه الروحية لا يمكن أن تنمو ولا يمكن لعلي ﷺ أن يخلقها في من حوله في حاشيته وفي أوساطه وقواعده الشعبية، في جو من المشاحنات والمساومات وأنصاف الحلول حتى لو كانت جائزة.. إن جوازها لا يغير من مدلولها التربوي شيئاً ولا من دورها في تكوين نفسية هذا الشخص بأي شكل من الأشكال..

إذن فالإمام عليه السلام كان أمامه حاجة ملحّة حقيقية في بناء دولته إلى قاعدة شعبية واعية يعتمد عليها في ترسيخ الأهداف في النطاق الأوسع وهذه القاعدة الشعبية لم تكن جاهزة له حينما تسلم زمام الحكم حتى يستطيع أن يتفق معها.

على أن هذه المساومات وأنصاف الحلول إنها ضرورات استثنائية لا توجب الانحراف عن ذلك الخط.. إنما كان على علّي عليه السلام أن يبني ذلك الجيش العقائدي، كان على علي عليه السلام أن ينتزع الخيّر الخيّر الطيّب الطيّب من جماعته وحاشيته العراقيين لكي يشكل منهم كتلة واعية

من قبيل مالك الأشتر وغيره وهؤلاء لم يكن بالإمكان ممارسة بناء نفسي وروحي وفكري وعاطفي حقيقي لهم في جو مليء بالمساومات وأنصاف الحلول... كانت المساومات وأنصاف الحلول نكسة بالنسبة إلى عملية التربية لهذا الجيش العقائدي وكان فقدان هذا الجيش العقائدي يعني فقدان الحقيقة التي يعتمد عليها الإمام عليه السلام في بناء دولته لأن أي دولة عقائدية بحاجة إلى طليعة عقائدية تستشعر بشكل معمق وموسع أهداف تلك الدولة وواقع أهميتها وضرورتها التاريخية ولهذا كان لا بدَّ من الحفاظ على صفاء وطهر عملية التربية، لبناء هذا الجيش العقائدي كان لا بدَّ لآلاف من أمثال مالك الأشتر أن يشهدوا إنساناً لا تزعزعه المغريات ولا يتنازل إلى أي نوع من أنواع المساومات حتى يستطيعوا من خلال حياة هذا الرجل العظيم أن يتبينوا المدلول الرسالي الكامل لأطروحة الأبعاد الواسعة للصيغة الإسلامية للحياة. إذن فكان على عليّ عليه السلام لأجل ممارسة عملية التربية لبناء هذا الجيش العقائدي كان لا بدَّ له أن يترفع عن هذه المساومات والحلول الوسط،

لكي يستطيع أن يخلق ذلك الجو الرفيع نفسياً وفكرياً وروحياً والذي سوف ينشأ في داخله وفي أعماقه.. جيل يستطيع أن يحتضن أهداف أمير المؤمنين عليه السلام ويضحي من أجلها في حياته وبعد وفاته..

النقطة الثانية: لا بدّ من الالتفات أيضاً إلى أن أمير المؤمنين عليه السلام جاء في أعقاب ثورة، ولم يجيء في حالة اعتيادية، ومعنى ذلك ان البقية الباقية من العواطف الإسلامية، كل هذه العواطف تجمعت، ثم ضغطت، ثم انفجرت في لحظة ارتفاع.. وماذا ينتظر القائد الرسالي غير لحظة ارتفاع في حياة أمة، لكي يستطيع أن يستثمر هذه اللحظة في سبيل إعادة هذه الأمة إلى سيرها الطبيعي.

كان لا بدّ للإمام عليه السلام أن يستثمر لحظة الارتفاع الثورية هذه، لأن المزاج النفسي والروحي وقتئذٍ لشعوب العالم الإسلامي، لم يكن ذاك المزاج الاعتيادي الهادىء الساكن لكي يمشي حسب مخطط تدريجي، وإنما كان هو المزاج الثوري الذي استطاع أن يرتفع إلى مستوى قتل

الحاكم والإطاحة به، لأنه انحرف عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ إذن هذا الارتفاع الذي وجد في لحظة في حياة الأمة الإسلامية لم يكن من الهين إعادته وبعد ذلك كان لا بدَّ للحاكم الذي يستلم زمام المسؤولية في مثل هذه اللحظة أن يعمق هذه اللحظة أن يمدد هذه اللحظة، أن يرسخ المضمون العاطفي والنفسي في هذه اللحظة عن طريق هذه الإجراءات الثورية التي قام بها أمير المؤمنين.

لو أن الإمام علي عليه السلام أبقى الباطل مؤقتاً وأمضى التصرفات الكيفية التي قام بها الحكام من قبل، لو أنه سكت عن معاوية وسكت عن أحزاب أخرى مشابهة لمعاوية بن أبي سفيان إذن لهدأت العاصفة ولانكمش هذا التيار العاطفي النفسي، وبعد انكماش هذا التيار العاطفي وهدوء تلك العاصفة لن يكون بمقدور الإمام عليه السلام أن يقوم بمثل هذه الإجراءات.

النقطة الثالثة: ولا بدَّ أيضاً من الالتفات إلى نقطة هي: أن الإمام عليه السلام، كان حريصاً على أن تدرك الأمة

كأمة أن واقع المعركة بينه عليه السلام وبين خصومه، بينه وبين معاوية ليست معركة بين شخصين، بين قائدين، بين قبيلتين، وإنما هي معركة بين الإسلام والجاهلية المتلبسة اليوم بلباس الإسلام.

كان حريصاً على أن يفهم الناس أن واقع المعركة هو واقع المعركة بين رسول الله صلى الله عليه وآله والجاهلية التي حاربته في بدر وأحد وغيرهما من الغزوات وكان هذا الحرص سوف يمنى بنكسة كبيرة لو أنه عليه السلام أقرَّ معاوية، وأقرَّ مخلفات عثمان السياسية والمالية، لو أنه أقرَّ هذه المخلفات ولو إلى برهة من الزمن إذن لترسخ في أذهان الناس، وفي أذهان المسلمين بشكل عام شك في أن القضية ليست قضية رسالية وإنما هي قضية أهداف حكم، إذا انسجمت مع واقع هذه المخلفات فتلغي هذه المخلفات ذلك الشك الذي نما عند الأمة في أمير المؤمنين عليه السلام بالرغم من أنه لم يكن يوجد له أي مبرر موضوعي، وإنما المبرر كانت له مبرراته الذاتية بالرغم من أنه لم يكن يوجد أي مبرر موضوعي للشك، وبالرغم من أن المبرر الوحيد للشك كان مبرراً ذاتياً وبالرغم

من هذا استفحل هذا الشك وقرر، وامتحن هذا الإمام العظيم عليه السلام بهذا الشك ومات واستشهد والأمة شاكة.. ثم استسلمت الأمة بعد هذا وتحولت إلى كتلة هامدة بين يدي الإمام الحسن عليه السلام هذا كله بالرغم من أن الشك لم يكن له مبرر موضوعي فكيف إذا افترضنا أن الشك وجدت له مبررات موضوعية بحسب الصورة الشكلية.

كيف لو أن المسلمين رأوا أن علياً بن أبي طالب عليه السلام الذي هو رمز الأهداف الرسالية هذا الشخص يساوم ويعمل ويبيع الأمة ولو مؤقتاً مع خيار الفسخ.

كيف يمكن للأمة أن تدرك الفرق بين بيع بلا خيار الفسخ وبين بيع يكون فيه خيار الفسخ، إن البيع على أي حال طبيعته هو البيع وأمير المؤمنين عليه السلام كانت مهمته الكبرى هي أن يحافظ على وجود الأمة على أن لا تتنازل الأمة عن وجوده، الأمة التي قالت لعمر بن الخطاب، لأكبر خليفة تولى الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، إذا انحرفت عما نعرف من أحكام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله نقوّمك بسيوفنا،

هذه الأمة التي قالت هذه الكلمة بكل شجاعة لأكبر خليفة بعد رسول الله ﷺ كانت قد بدأت تتنازل عن وجودها أو بتعبير آخر كانت هناك مؤامرات عليها لكي تتنازل عن وجودها، وكان على علي بن أبي طالب عليه السلام أن يحافظ على هذه الأمة، ويحصنها ضد أن تتنازل عن وجودها، عملية التنازل عن الوجود كان يمثلها معاوية بن أبي سفيان، وجذور معاوية في تاريخ الإسلام، هذا الذي عبّر عنه وقتئذٍ، بأن الإسلام أصبح هرقلية وكسروية، الهرقلية والكسروية كان يكنى بها عن تنازل الأمة عن وجودها، يعني تحولت التجربة الإسلامية من أمة تحمل رسالة إلى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة بمستوى وعيه لهذه الرسالة وإخلاصه لهذه الرسالة سلباً وإيجاباً، هذه المؤامرة الكبيرة التي نجحت بعد هذا والتي توجت بكل المآسي والمحن والكوارث التي كانت ولا تزال إلى يومنا هذا هي نتيجة تنازل الأمة عن وجودها، نتيجة خداع الأمة، وتحجيمها أو الضغط عليها حتى تنازلت عن وجودها في عقد لا يقبل الفسخ..

أمير المؤمنين عليه السلام كان يريد وقد أدرك الأمة في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقل، أن يمدد هذا الوجود المستقل أن يشعر الأمة بأنها ليست سلعة تباع وتشترى، أنها ليست شيئاً يساوم عليها، إذن كيف يشعرها بأنها ليست سلعة تباع وتشترى، إذا كان هو يبيعها ويشتريها، ولو في عقود قابلة للفسخ؟

كيف يستطيع أن يشعر الأمة بأنها لا تباع ولا تشترى، ليست وفق رغبات السلاطين وليست وفق رغبات الحكام.

كيف يمكن أن يفهم الأمة ذلك إذا كان هو يبيع قطاعات من هذه الأمة لحكام فجرة من قبيل معاوية بن أبي سفيان، في سبيل أن يسترجع هذه القطاعات بعد ذلك.

بطبيعة الحال كان هذا معناه مواكبة المؤامرة التي كان روح العصر يتفجر أو يتمخض عن مثلها والتي كان أمير المؤمنين عليه السلام واقفاً لأجل أن يحبطها وينقذ الأمة منها، وحينئذٍ لا يمكن بحال من الأحوال أن نفترض أن الإمام عليه السلام يساهم في حَبْكِ هذه المؤامرة.

النقطة الرابعة: هي أن علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن يتعامل مع الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وإنما كان يحمل هدفاً أكبر من ذلك، أمير المؤمنين عليه السلام كان يحس بأنه قد أدرك المريض وهو في آخر مرضه، قد أدركه حيث لا ينفع العلاج ولكنه كان يفكر في أبعاد أطول وأوسع للمعركة.

لم يكن يفكر فقط في الفترة الزمنية التي عاشها وإنما كان يفكر على مستوى آخر أوسع وأعمق، هذا المستوى يعني أن الإسلام كان بحاجة إلى أن تقدم له في خضم الانحراف بين يدي الأمة أطروحة واضحة صريحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، لا التواء فيها ولا تعقيد، لا مساومة فيها ولا نفاق ولا تدجيل.

لماذا؟.. لأن الأمة كتب عليها أن تعيش الحكم الإسلامي المنحرف، هذا الإسلام إسلام مشوّه ممسوخ إسلام لا يحفظ الصلة العاطفية فضلاً عن الفكرية بين الأمة ككل وبين الرسالة، لا يمكن أن تحفظ هذه الصلة العاطفية

والروحية بين الأمة الإسلامية وبين الإسلام على أساس هذا الإسلام المعطى لهارون الرشيد، ولمعاوية بن أبي سفيان، ولعبد الملك بن مروان، هذا الإسلام لا يمكن أن يحفظ هذه الصلة فكان لا بدَّ لحفظ هذه الصلة بين جماهير الأمة الإسلامية وبين هذه الرسالة، من إعطاء صورة واضحة محدودة للإسلام وهذه الصورة أُعطيت نظرياً على مستوى ثقافة أهل البيت عليهم السلام وأعطيت عملياً على مستوى تجربة الإمام عليه السلام في تأكيده على العناوين الأولية في التشريع الإسلامي، وفي تأكيده على الخطوط الرئيسية في الصيغة الإسلامية للحياة، كان في هذا يريد أن يقوم المنهاج الإسلامي واضحاً غير ملوّث بلوثة الانحراف التي كتبت على تاريخ الإسلام مدة طويلة من الزمن وكان لا بدَّ لكي يتحقق هذا الهدف من أن يعطي هذه التجربة بهذا النوع من الصفاء والنقاء والوضوح دون أن يعمل ما أسميناه بقوانين باب التزاحم.

وهكذا كان وظلَّ الإمام عليه السلام صامداً مواجهاً لكل المؤامرات التي كانت الأمة تساهم في صنعها وفي حياكتها

على أساس جهلها وعدم وعيها وعدم شعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه عليه السلام في سبيل حماية وجودها من الضياع وحماية كرامتها من أن تتحول إلى سلعة تباع وتشترى حتى خرَّ صريعاً على يد شخص من هذه الأمة التي ضحَّى في سبيلها... خرَّ صريعاً في المسجد فقال:

فزت ورب الكعبة..

لنحاسب علياً وهو في آخر لحظة من لحظات حياته عليه السلام حينما قال: فزت ورب الكعبة.

هل كان علي أسعد إنسان أو أتعس إنسان؟...

هنا مقياسان:

فتارة نقيس علياً عليه السلام بمقياس الدنيا، وأخرى نقيس علياً بمقاييس الحق.

لو كان قد عمل كل عمله للدنيا، لنفسه، فهو أتعس إنسان.. ومن أتعس من علي عليه السلام الذي بنى كل ما بنى وأقام كل ما أقام من صرح ثم حرم من كل هذا البناء ومن

كل هذه الصروح؟

هذا الإسلام الشامخ العظيم الذي يأكل الدنيا شرقاً وغرباً هذا الإسلام بني بدم علي عليه السلام، بني بخفقات قلب علي عليه السلام بني بآلام علي عليه السلام، بُني بنار علي عليه السلام، كان علي هو شريك البناء بكل محن هذا البناء بكل آلام هذا البناء وفي كل مآسي هذا البناء أي لحظة محرجة وجدت بتاريخ هذا البناء لم يكن علي عليه السلام هو الإنسان الوحيد الذي يتجه إليه نظر البنّاء الأول صلى الله عليه وآله ونظر المسلمين جميعاً لأجل إنقاذ عملية البناء، إذن فعلي عليه السلام كان هو المضحي دائماً في سبيل هذا البناء، هو الشخص الذي أعطى ولم يبخل الذي ضحى ولم يتردد الذي كان يضع دمه على كفه في كل غزوة في كل معركة، في كل تصعيد جديد لهذا العمل الإسلامي الراسخ العظيم..

إذن شيّدت كل هذه المنابر بيد علي عليه السلام واتسعت أرجاء هذه المملكة بسيف علي عليه السلام.

جهاد علي كان هو القاعدة لقيام هذه الدولة الواسعة الأطراف لكن ماذا حصَّل علي عليه السلام من كل هذا البناء في مقاييس الدنيا، إذا اعتمدنا مقاييس الدنيا؟.

لو كان علي عليه السلام يعمل لنفسه فماذا حصَّل علي عليه السلام من كل هذه التضحيات، من كل هذه البطولات؟ ماذا حصل غير الحرمان الطويل الطويل، غير الإقصاء عن حقه الطبيعي بقطع النظر عن نص أو تعيين من الله سبحانه وتعالى؟ كان حقه الطبيعي أن يحكم بعد أن يموت النبي صلى الله عليه وآله لأنه الشخص الثاني عطاء للدعوة وتضحية في سبيلها.

أقصي من حقه الطبيعي، قاسى ألوان الحرمان، أنكرت عليه كل امتيازاته، معاوية بن أبي سفيان هو الذي يقول لمحمد بن أبي بكر كان علي كالنجم في السماء في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن أباك والفاروق ابتزّا حقه وأخذا أمره، وبعد هذا نحن شعرنا أن بإمكاننا أن ندخل في ميدان المساومة مع هذا الرجل.

ويقول الامام عن نفسه، يحدث عن مقامه في أيام النبي عليه السلام، وكيف أخذ المقام هذا يتنازل بالتدريج نتيجة لمؤامرات الحاكمين عليه، حتى قيل علي ومعاوية.

إذن فعلي عليه السلام حينما واجهه عبد الرحمن بن ملجم بتلك الضربة القاتلة على رأسه الشريف، كان ماضيه كله ماضي حرمان وألم وخسارة لم يكن قد حصل على شيء منه، لكن الأشخاص الذين حصلوا على شيء عظيم من هذا البناء هم أولئك الذين لم يساهموا في هذا البناء، هم أولئك الذين كانوا على استعداد دائم للتنازل عن مستوى هذا البناء في أية لحظة من اللحظات أولئك حصلوا على مكاسب عريضة من هذا البناء، أما هذا الإمام الممتحن الذي لم يفر لحظة، الذي لم يتلكأ في أي آن، الذي لم يتلعثم في قول أو عمل، هذا الإمام العظيم لم يحصل على أي مكسب من هذا البناء بأي شكل من الأشكال. انظروا إن هذه الحادثة يمكن أن تفجر قلب الإنسان. وما الإنسان غير العامل، حينما ينظر حال عامل على هذا الترتيب يتفجر قلبه

ألماً لحال هذا العامل المسكين، لحال هذا العامل التعيس، الذي بنى فغير الدنيا ثم لم يستفد من هذا التغيير.

ثم تعالوا انظروا إلى المستقبل الذي ينظره الإمام علي عليه السلام بعين الغيب هذا ماضيه، فماذا عن مستقبله؟

كان يرى بعين الغيب أن عدوه اللدود سوف يطأ منبره، سوف يطأ مسجده، سوف ينتهك كل الحرمات والكرامات التي ضحى وجاهد في سبيلها سوف يستقل بهذه المنابر التي شيدت بجهاده وجهوده ودمه، سوف يستغلها في لعنه وسبه عشرات السنين.

إذن فهو كان ينظر بعين الغيب إلى المستقبل بهذه النظرة، لم يكن يرى في المستقبل نوعاً من التكذيب يتدارك به هذا الحرمان، الأجيال التي سوف تأتي بعد أن يفارق الدنيا، كانت ضحية مؤامرة أموية جعلتها لا تدرك أبداً دور الإمام علي عليه السلام في بناء الإسلام.

هذا هو حرمان الماضي وهذا هو حرمان المستقبل.

وبالرغم من كل هذا قال عليه السلام : فزت ورب

الكعبة، حينما أدرك أنها اللحظة الأخيرة وأنه انتهى خط جهاده وهو في قمة جهاده وانتهى خط محنته وهو في قمة صلاته وعبادته، قال: فزت ورب الكعبة، لأنه لم يكن إنسان الدنيا ولو كان إنسان الدنيا لكان أتعس إنسان على الإطلاق لو كان إنسان الدنيا لكان قلبه يتفجر ألماً وكان قلبه يتفجر حسرة ولكنه لم يكن إنسان الدنيا، لو كان إنسان الدنيا فسوف يندم ندماً لا ينفعه معه شيء، لأنه بنى شيئاً انقلب عليه ليحطمه. أي شيء يمكن أن ينفع هذا الشخص؟ إذا فرضنا أن شخصاً أراد أن يربي شخصاً آخر لكي يخدمه فلما ربى ذاك الشخص ونمي واكتمل رشده جاء ليقتله ماذا ينفع هذا الشخص ندمه غير أن يموت.

هذا الرجل العظيم قال: فزت ورب الكعبة، كان أسعد إنسان ولم يكن أشقى إنسان لأنه كان يعيش لهدفه، ولم يكن يعيش للدنيا، كان يعيش لهدفه ولم يكن يعيش لمكاسبه ولم يتردد لحظة وهو في قمة هذه المآسي والمحن، في صحة ماضيه، وفي صحة حاضره، وقد أدّى دوره الذي كان يجب عليه.

هذه هي العبرة التي يجب أن نأخذها.

نحن يجب أن نستشعر دائماً أن السعادة في عمل العامل لا تنبع من المكاسب التي تعود إليه نتيجة لهذا العمل.

يجب أن لا تقيّم سعادة العامل على أساس كهذا لأننا لو قيّمناه على هذا الأساس فقد يكون حظنا كحظ هذا الإمام الذي بنى إسلاماً ووجّه أمة، ثم بعد هذا انقلبت عليه هذه الأمة لتلعنه على المنابر ألف شهر.

نحن يجب أن لا نجعل مقياس سعادة العامل في عمله هو المكاسب والفوائد التي تنجم عن هذا العمل وإنما رضى الله سبحانه وتعالى وإنما حقانية العمل، كون العمل حقاً وكفى، وحينئذٍ سوف نكون سعداء سواء أثّر عملنا أو لم يؤثر، سواء قدر الناس عملنا أم لم يقدروا، سواء رمونا باللعن أو بالحجارة على أي حال سوف نستقبل الله سبحانه وتعالى ونحن سعداء لأننا أدّينا حقنا وواجبنا، لئن ضيّع هؤلاء السعادة ولئن ضيعوا فهمهم، ولئن استولى عليهم

الغباء فخلطوا بين علي عليه السلام ومعاوية، لئن انصرفوا عن علي وهم في قمة الحاجة إليه فهناك من لا يختلط عليه الحال، من يميز بين علي عليه السلام وبين أيّ شخص آخر، ذاك هو الحق وتلك هي السعادة.

ـ ٢ ـ

كنا نتحدث عن تلك الظاهرة الفريدة في المرحلة التي قضاها الإمام عليه السلام حاكماً متصرفاً ومصرفاً لشؤون المسلمين.

هذه الظاهرة الفريدة هي ما ألمحنا إليها من أن الإمام عليه السلام كان حريصاً كل الحرص على إعطاء العناوين الأولية للصيغة الإسلامية للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي الأولي بحسب مصطلح الأصوليّين، دون تجاوزه إلى ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابسات والظروف.

قلنا إن هذه النقطة بحثت من الناحية الفقهية ومن

الناحية السياسية معاً، فقيل مثلاً:

- لماذا لم يرتضِ الإمام بأنصاف الحلول أو بشيء من المساومة؟..

- لماذا لم يسكت؟

- لماذا لم يُمْضِ ولو بصورة مؤقتة الجهاز الفاسد الذي تركه وخلفه عثمان بعد موته؟

- لماذا لم يُمْضِ الجهاز حتى إذا أطاعه هذا الجهاز وأسلم له القيادة بعد ذلك يستطيع أن يمارس بشكل أقوى وأعنف عملية التصفية؟

كنا نعالج هذه المسألة وقلنا إن الجواب على هذا السؤال وتفسير هذه الظاهرة الفريدة في حياة الإمام عليه السلام يتضح بمراجعة عدة نقاط استعرضنا من هذه النقاط أربع:

النقطة الأولى: هي أن الإمام عليه السلام كان بحاجة إلى إنشاء جيش عقائدي في دولته الجديدة التي كان يخطط لإنشائها في العراق، وهذا الجيش العقائدي لم يكن موجوداً

بل كان بحاجة إلى تربية وإعداد فكري ونفسي وعاطفي، وهذا الإعداد كان يتطلب جواً مسبقاً صالحاً لأن تنشأ فيه بذور هذا الجيش العقائدي. وهذا الجو ما لم يكن جواً كفاحياً رسالياً واضحاً، لا يمكن أن تنشأ في أحضانه بذور ذلك الجيش العقائدي، لو افترضنا أن الجو كانو جو المساومات وأنصاف الحلول حتى في حالة كون أنصاف الحلول تكتسب الصفة الشرعية بقانون التزاحم على ما ذكرناه حتى في هذه الحالة تفقد الصيغة مدلولها التربوي.

النقطة الثانية: هي أن الإمام عليه السلام جاء لتسلم زمام الحكم في لحظة ثورة لا في لحظة اعتيادية، ولحظة الثورة تستبطن لحظة تركيز وتجمع كل الطاقات العاطفية والنفسية في الأمة الإسلامية لصالح القضية الإسلامية فكان لا بدَّ من اغتنام هذه اللحظة بكل ما تستبطنه من هذا الزخم الهائل عاطفياً ونفسياً وفكرياً.

النقطة الثالثة: التي ركّزنا عليها، هي أن ظاهرة الشك في مجتمع الإمام عليه السلام هذه الظاهرة التي بيّناها وكيف

أنها عصفت بالتجربة واستطاعت أن تقضي على الآمال والأهداف التي كانت معقودة عليها، هذا الشك بالرغم من أنه لم يكن يملك في سيرة الإمام عليه السلام أي مبرر موضوعي، وكانت مبرراته ذاتية محضة بالنحو الذي شرحناه تفصيلاً فيما مضى فقد استفحل وطغى، فكيف لو افترضنا أن هذه المبررات الذاتية أضيفت إليها مبررات موضوعية من الناحية الشكلية، إذن لكان هذا الشك أسرع إلى الانتشار والتعمق والرسوخ وفي النهاية إلى تقويض هذه التجربة.

النقطة الرابعة: التي ختمنا بها الحديث هي عبارة عن أن أنصاف الحلول أو المساومة هنا كانت في الواقع اشتراكاً في المؤامرة وكانت تحقيقاً للمؤامرة من ناحية الإمام عليه السلام ولم يكن تعبيراً عن الإعداد لإحباط هذه المؤامرة لأن المؤامرة لم تكن مؤامرة على شخص الإمام علي عليه السلام، لم تكن مؤامرة على حاكمية الإمام علي عليه السلام حتى يقال: إنه يمهد لهذه الحاكمية بشيء من هذه الحلول الوسط، وإنما المؤامرة كانت مؤامرة على وجود الأمة الإسلامية، على شخصية هذه الأمة، على أن

تقول كلمتها في الميدان بكل قوة وجرأة وشجاعة، وتعمل على أن تَنْسَلِخ الأمّة عن شخصيتها وينصب عليها قيم من أعلى يعيش معها عيش الأكاسرة والقياصرة مع شعوب الأكاسرة والقياصرة. هذا الذي كان يسمّى بالمصطلح الإسلامي بالهرقلية والكسروية.

هذه هي المؤامرة.

فلو أن الإمام عليه السلام كان قد مارس أنصاف الحلول، لو كان قد باع الأمة بيعاً مؤقتاً مع خيار الفسخ، إذن لكان بهذا قد اشترك في إنجاح وفي سلخ الأمة عن إرادتها وشخصيتها.

كانت الأمة وقتئذٍ بحاجة كبيرة جداً لكي تستطيع أن تكون على مستوى مسؤوليات ذلك الموقف العصيب، وعلى مستوى القدرة للتخلص من تبعات هذه المؤامرة.

كان لا بدَّ من أن تشعر بكرامتها بإرادتها، بحريتها، بأصالتها، بشخصيتها، في المعترك وهذا كله مما لا يتفق مع ممارسة الإمام عليه السلام لأنصاف الحلول.

النقطة الخامسة: التي لا بدّ من الالتفات إليها في هذا المجال هي أن الإمام عليه السلام لو كان قد أمضى هذه الأجهزة الفاسدة التي خلفها عثمان الخليفة من قبله فليس من المعقول بمقتضى طبيعة الأشياء أن يستطيع بعد هذا أن يمارس عملية التغيير الحقيقي في هذه التجربة التي يتزعمها.

وفي الواقع أن هذا الفهم لموقف أمير المؤمنين عليه السلام الذي أعرضه في هذه النقطة مرتبط بحقيقة مطلقة تشمل موقف أمير المؤمنين عليه السلام وتشمل أي موقف رسالي عقائدي آخر مشابه لموقف أمير المؤمنين عليه السلام أي موقف آخر يستهدف تغييراً جذرياً أو إصلاحياً حقيقياً في مجتمع أو بيئة أو حوزة أو في أي مجتمع آخر من المجتمعات وهذه الحقيقة المطلقة هي أن كل إصلاح لا يمكن أن ينشأ على يد الأجهزة الفاسدة نفسها التي لا بدّ أن يطالها التغيير.

فلو افترضنا أن الزعيم المسؤول عن إصلاح تلك

البيئة أقرَّ الأجهزة الفاسدة التي يتوقف الإصلاح على إزالتها وعلى تبديدها، لو أنه أقرَّ هذه الأجهزة وتعاون معها وأمضاها ولو مؤقتاً، ثم بعد أن اكتسب القوة والمزيد من القدرة، وامتدَّ أفقياً وعامودياً في أبعاد هذه التجربة التي تزعمها، بعد هذا استبدل هذه الركائز بركائز أخرى هذا المنطق منطق لا يتفق مع طبيعة العمل الاجتماعي ومع طبيعة الأشياء وذلك لأن هذا الزعيم من أين سوف يستمد القوة من أين سوف تتسع له القدرة؟ من أين سوف يمتد أفقياً وعامودياً؟

هل تهبط عليه هذه القوة بمعجزة من السماء؟ لا.. وإنما سوف يستمد هذه القوة من تلك الركائز نفسها..

أي زعيم في أية بيئة يستمد قوته وتتعمق هذه القوة عنده باستمرار من ركائزه، من أسسه، من أجهزته التي هي قوته التنفيذية التي هي واجهته على الأمة، التي هي تعبيره، التي هي تخطيطه، فإذا افترضنا أن هذه الأجهزة كانت هي الأجهزة الفاسدة التي يريد المخطط الإصلاحي إزالتها

وتبديلها بأجهزة أخرى، فليس من المعقول أن يقول الزعيم في أية لحظة من اللحظات، وفي أي موقف من المواقف: دع هذه الأجهزة معي دعني أعمل مع هذه الأجهزة حتى أمتد حتى أشمخ وبعد أن أمتد وأشمخ أستطيع أن أقضي على هذه الأجهزة.

فإن هذا الشموخ الناتج من هذه الأجهزة لا يمكن أن يقضي على هذه الأجهزة. النتيجة منطقياً مرتبطة بمقدماتها والنتيجة واقعياً مرتبطة أيضاً بركائزها وأسسها، فهذا الشموخ المستمد من ركائز فاسدة، من أجهزة فاسدة، لا يمكن أن يعود مرة أخرى فيتمرد على هذه الأجهزة.

هذا الزعيم حتى لو كان حسن النية، حتى لو كان صادقاً في نيته وفي تصوره سوف يجد في نهاية الطريق أنه عاجز عن التغيير، سوف يجد في نهاية الطريق أنه لا يتمكن أن يحقق أهدافه الكبيرة لأن الزعيم مهما كان زعيماً، والرئيس مهما كان حاكماً وسلطاناً، لا يغير بيئة بجرة قلم، لا يغير بيئة بإصدار قرار بإصدار أمر، وإنما تغيير البيئة عن

طريق الأجهزة التي تنفذ إرادة هذا الزعيم، وتخطيط هذا الزعيم، إذن كيف سوف يستطيع هذا الزعيم أن ينفذ إرادته، أن يحقق أهدافه، أن يصل إلى أمله؟

فطبيعة الأشياء وطبيعة العمل التغييري في أي بيئة تفرض على أي زعيم يبدأ هذا العمل أن يبني زعامته بصورة منفصلة عن تلك الأجهزة الفاسدة وهذا ما كان يفرض على الإمام عليه السلام أن لا يمضي مخلفات عثمان الإدارية والسياسية..

النقطة السادسة: التي لا بدَّ من الالتفات إليها أيضاً في هذا المجال هي أن الإمام عليه السلام لو كان قد أمضى ولو مؤقتاً الأجهزة التي خلفها عثمان أمضى مثلاً ولاية معاوية بن أبي سفيان وحاكميته على الشام لحصل من ذلك على نقطة قوة مؤقتة.

لو باع الأمة من معاوية بيعاً مؤقتاً مع خيار الفسخ إذن لاستطاع بذلك أن يحصل على نقطة قوة ونقطة القوة هي أن معاوية سوف يبايعه وسوف يبايعه أهل الشام وهذه النقطة

نقطة قوة في حساب عملية التغيير لكن في مقابل هذا أيضاً سوف يحصل معاوية بن أبي سفيان، على نقطة قوة كما حصل الإمام عليه السلام على نقطة قوة ونقطة القوة التي سوف يحصل عليها معاوية هي اعتراف الإمام عليه السلام صاحب الأطروحة الجديدة صاحب الخط الإسلامي الآخر المعارض على طول الزمن منذ تشكلت السقيفة بشرعية معاوية بن أبي سفيان بأن معاوية رجل على أقل التقادير يوصف بأنه عامل قدير على تسيير مهام الدولة وعلى حماية مصالح المسلمين وعلى رعاية شؤونهم، هذا الاعتراف هو المدلول العرفي الواضح لمثل هذا الإمضاء في الذهنية الإسلامية العامة، فنقطة قوة لمعاوية مقابل نقطة قوة لعلي عليه السلام .

ونحن إذا قارنّا بين هاتين النقطتين فلن ننتهي إلى قرار يؤكد أن نقطة القوة التي يحصل عليها الإمام عليه السلام هي أهم في حساب عملية التغيير الاجتماعية التي يمارسها الإمام عليه السلام من نقطة القوة التي يحصل عليها معاوية، خاصة إذا التفتنا إلى أن تغيير الولاة في داخل الدولة الإسلامية وقتئذٍ لم يكن عملية سهلة ولم يكن عملية بهذا

الشكل من اليسر الذي نتصوره في دولة مركزية تسيطر حكومتها المركزية على كل أجهزة الدولة وقطاعاتها.

ليس معنى أن معاوية يبايع أو يأخذ البيعة لخليفة في المدينة أن جيشاً في الحكومة المركزية سوف يدخل الشام وأن هناك ارتباطاً عسكرياً حقيقياً سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزية وإنما يبقى هذا الوالي بعد أخذ البيعة همزة الوصل الحقيقية بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية لضعف مستوى الحكومة المركزية وقتئذٍ من ناحية، ومن ناحية أخرى لترسخ معاوية في الشام بالخصوص لأن الشام لم تعرف حاكماً مسلماً قبل معاوية وقبل أخي معاوية ومذ دشَّن الشام حياته الإسلامية فإنما دشَّنها على يد أولاد أبي سفيان. إذن ترسخ معاوية من الناحية التاريخية، والصلاحيات الاستثنائية التي أعطيت له في أن ينشىء له سلطنة وملكية في الشام؛ هذه الصلاحيات الاستثنائية التي أخذها معاوية لأجل إنشاء مظاهر ملكية مستقلة في الشام، لا تشبه الوضع السياسي في الدولة الإسلامية في باقي الأقاليم وهذا مما رسَّخ نوعاً من الانفصالية في الشام عن

باقي أجزاء جسم الدولة الإسلامية.

ثم الصلاحيات التي أخذها من عثمان بن عفان حينما تولى الخلافة، وحينما شعر بأنه قادر على أن يستهتر بشكل مطلق بالأمر والنهي، بحيث لم يبق طيلة مدة خلافة عثمان أي ارتباط حقيقي بين الشام والمدينة وإنما كان هو الآمر والناهي في الشام مما جعل الشام يعيش حالة شبه انفصالية في المواقع، وإن لم تكن انفصالية بحسب العرف الدستوري للدولة الإسلامية وقتئذٍ، وهذا مما يعقد الموقف على أمير المؤمنين عليه السلام ويجعل نقطة القوة التي يحصل عليها وهي مجرد البيعة في الأيام الأولى نقطة غير حاسمة بينما إذا أراد بعد هذا أن يعزل معاوية فبإمكان معاوية أن يثير ـ إلى جانب وجوده المادي القوي المترسخ في الشام ـ الشبهات على المستوى التشريعي والإسلامي.

ـ لماذا يعزلني؟

ـ ماذا صدر مني حتى يعزلني بعد أن اعترف بأني حاكم عادل صالح لإدارة شؤون المسلمين؟

ـ ما الذي طرأ وما الذي تجدد؟

مثل هذا الكلام كان بإمكان معاوية أن يوجهه حينئذٍ إلى الإمام عليه السلام ولم يكن للإمام عليه السلام أن يعطي جواباً مقنعاً للرأي العام الإسلامي وقتئذٍ على مثل هذه الشبهة.

بينما حين يعزله من البداية يعزل على أساس أنه يؤمن بعدم صلاحيته، وبأنه لا يتحمل مسؤولية وجوده كحاكم، في الفترة السابقة التي عاشها معاوية حاكماً من قبل.

النقطة السابعة: التي لا بدَّ من الالتفات إليها في هذا المجال هي: أن هذه الشبهة تفترض أن معاوية بن أبي سفيان، لو أن الإمام عليه السلام أمضى حاكميته وأمضى ولايته لبايعه ولأعطى نقطة القوة هذه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ولكن لا يوجد في الدلائل والقرائن التي كانت تكتنف موقف الإمام عليه السلام ما يوحي بصحة هذا الافتراض، فإن معاوية لم يعص علياً لأجل أنه عزل عن الولاية، وإنما كان ذلك في أكبر الظن جزءاً من مخطط لمؤامرة طويلة الأمد للأموية على الإسلام، الأموية كانت تريد أن تنهب مكاسب

الإسلام بالتدريج هذا النهب الذي عبّر عنه بأقسى صورة أبو سفيان حينما ركل قبر حمزة رضوان الله عليه بقدمه وهو يقول: إن هذا الدين الذي بذلتم دماءكم في سبيله، وضحيتم في سبيله قوموا واقعدوا وانظروا كيف أصبح كرة في يد صبياننا وأطفالنا.

كان الشرف الأموي يريد أن يقتنص وأن ينهب مكاسب البناء الإسلامي والوجود الإسلامي، وكانت هذه المؤامرة تنفذ على مستويات وكانت المرحلة الأولى من هذه المؤامرة ترسخ الأخوين يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية بن أبي سفيان بعد يزيد. ومحاولة استقطاب معاوية للشام، عن طريق بقائه هذه المدة الطويلة فيها.

ثم كان معاوية بن أبي سفيان بنفسه، ينتظر الفرصة الذهبية التي يتيحها مقتل عثمان بن عفان هذه الفرصة الذهبية التي تعطيه سلاحاً غير منتظر يمكن أن يمسكه ويدخل به إلى الميدان.. ولهذا تباطأ عن نصرة عثمان بن عفان كان عثمان يستنصره ويستصرخه ويؤكد له أنه يعيش

لحظات الخطر ولكن معاوية كان يتلكأ في إنقاذه وكان معاوية ـ على أقل تقدير ـ قادراً على أن يؤخر هذا المصير المحتوم لعثمان إلى مدة أطول لو أنه وقف موقفاً إيجابياً حقيقياً في نصرة عثمان بن عفان إلاَّ أنه تلكأ وتلعثم وكان يخطط لكي يبقى هذا التيار كاسحاً ولكي يخرج عثمان بن عفان على يد المسلمين ميتاً ثم بعد هذا لكي يأتي ويمسك بزمام هذا السلاح ولكي يقول أنا ابن عم الخليفة المقتول ومن المعلوم أن معاوية لن يتاح له في كل يوم، أن يكون ابن عم الخليفة المقتول، فهذه الفرصة الذهبية التي كانت على مستوى الأطماع والآمال الأموية لنهب كل مكاسب الإسلام هذه الفرصة الذهبية لم يكن من المظنون أن معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشام، وولاية الشام كانت مرحلة أما منذ قتل عثمان بدأ معاوية في نهب كل الوجود الإسلامي، وتزعم كل هذا الوجود وكان هذا يعني أن تعيينه أو إبقاءه والياً على الشام لن يكون على مستوى أطماعه في المرحلة الأولى التي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الأموية على الإسلام.

وأخيراً لا بدَّ من الالتفات أيضاً إلى شيء آخر: هو أن الوضع الذي كان يعيشه الإمام عليه السلام في ملاحظة طبيعة الأمة في ذلك الوضع، وطبيعة الإمام عليه السلام في ذلك الوضع، لم يكن ليوحي بالاعتقاد بالعجز عن إمكان النجاح لعملية التغيير دون مساومة.

ومن الواضح أن الفكرة الفقهية التي أشرنا إليها سابقاً عن توقف الواجب الأهم على المقدمة المحرمة، إنما تكون فيما إذا كان هناك توقف بالفعل، بحيث يحرز أنَّ هذا الواجب الأهم لا يمكن التوصل إليه إلاَّ عن طريق هذه المقدمة المحرمة، والظروف وطبيعة الأشياء وقتئذٍ لم تكن توحي، ولم تكن تؤدي إلى اليقين بمثل هذه التوقف.

وذلك لأن المؤامرة التي كان علي عليه السلام قد اضطلع بمسؤولية إحباطها حينما تولى الحكم لم تكن قد نجحت بعد بل كانت الأمة في يوم قريب سابق على يوم مقتل عثمان قد عبرت تعبيراً معاكساً مضاداً لواقع هذه المؤامرة ولمضمون هذه المؤامرة.

هذه المؤامرة صحيح أنها تمتد بجذورها إلى أمد طويل قبل هذا التاريخ، المؤامرة على وجود الأمة الإسلامية، فإن الأمة الإسلامية التي سهر عليها رسول الله ﷺ على إعطائها أصالتها وشخصيتها وكرامتها ووجودها، حتى كان قد ألزم نفسه وألزمه ربه بالشورى والتشاور مع المسلمين لأجل تربية المسلمين تربية نفسية وإعدادهم لتحمل مسؤولياتهم واشعارهم بأنهم هم الأمة التي يجب أن تتحمل مسؤوليات هذه الرسالة التي خلفها رسول الله ﷺ وهي تعيش هذه الروحية وتعيش على هذا المستوى عاطفياً ونفسياً، وبدأت جذور المؤامرة للقضاء على وجود الأمة كافة وتحويل الوجود إلى السلطان والحاكم.

أول جذر من جذور هذه المؤامرة أعطي كمفهوم في السقيفة حينما قال أحد المتكلمين فيها: من ينازعنا سلطان محمد.

والسقيفة وإن كانت بمظهرها اعترافاً بوجود الأمة لأن

الأمة تريد أن تتشاور في أمر تعيين الحاكم بعد رسول الله ﷺ ولكن المفهوم الذي أعطي في السقيفة والذي كتب له أن ينجح يوم السقيفة، وأن يمتد بأثره بعد ذلك بعد يوم السقيفة هذه، المفهوم كان بحد ذاته ينكر وجود الأمة.

كان ينظر إلى النبوة على أنها سلطان قريش أنها سلطان عشيرة معينة وهذه العشيرة المعينة هي التي يجب أن تحكم وأن تسود، نظرية مالكية العشيرة، التي تتحدى وجود الأمة، وتنكر عليها أصالتها ووجودها وشخصيتها، هذه النظرية طرحت كمفهوم في السقيفة ثم بعد هذا امتدت واتسعت عملياً ونظرياً.

عمر بن الخطاب كان أيضاً يعمق بشكل آخر هذا المفهوم.

في مرة من المرات سمع عمر بن الخطاب أن المسلمين يتحلقون حلقاً حلقاً، ويتكلمون في أن أمير المؤمنين إذا أصيب بشيء فمن يحكم المسلمين بعد عمر؟

المسلمون أناس يحملون همّ التجربة همّ المجتمع همّ

الأمة تطبيقاً لفكرة: إن كل مسلم يحمل الهموم الكبيرة، يفكرون في أن عمر بن الخطاب حينما يموت، من الذي يحكم المسلمين؟

هذا تعبير عن وجود الأمة في الميدان.

انزعج عمر بن الخطاب جدّاً لهذا التعبير عن وجود الأمة، لأنه يعرف أن وجود الأمة في الميدان معناه وجود علي عليه السلام في الميدان، كلما نمت الأمة تأصل وجودها أكثر واكتسبت إرادتها ووعيها بدرجة أعمق كان علي هو الأقدر وهو الأكفأ لممارسة عملية الحكم، لهذا صعد على المنبر وقال ما مضمونه: إن أقواماً يقولون ماذا ومن يحكم بعد أمير المؤمنين؟.. ألا أن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها.

يعني ماذا يريد أن يقول في هذا الكلام يريد أن يقول في هذا الكلام بأن المسلمين لا يجوز أن يعودوا مرة أخرى إلى التفكير في المستقبل في انتخاب شخص وإنما الشخص يجب أن يعين لهم من أعلى. لكن لم يستطع ولم يجرؤ أن

يبين هذا المفهوم وإلاَّ هو في نفسه كان هكذا يرى. .

كان يرى أن الأمة يجب أن تستمع منه هو يعيّن من أعلى هذا الحاكم، لا أن الأمة نفسها تفكر في تعيين هذا الحاكم كما فكَّرت مثلاً عقيب وفاة رسول الله ﷺ كان ذلك فلتة وقى الله المسلمين شرَّها، والأمة يجب ألاَّ تعود إلى هذه الفلتة مرة أخرى.

إذن فما هو هذا البديل؟ هذا البديل لم يبرزه لكن البديل كان في نفسه هو أني أنا يجب أن أعيّن هذا أيضاً، وبعد هذا عبّر عن هذا البديل بكل صراحة وهو على فراش الموت، وحينما طلب منه التملقون أن يوصي وألاَّ يهمل أمة محمد ﷺ، حينما طلبوا منه ذلك عبر عن هذا البديل بكل صراحة فأسند الأمر إلى ستة أيضاً كان فيه نوع من التحفظ لأنه لم يعين واحداً وحيداً لا شريك له وإنما عيّن ستة كأنه يريد أن يقول: بأني أعطيت درجة من المشاركة للأمة عن طريق أني أسندت الأمر إلى ستة هم يعينون فيما بينهم واحداً منهم.

طبعاً عبد الرحمن بن عوف الذي كان قطب الرحى في هؤلاء الستة أيضاً لم يستطع في تلك المرحلة أن يطفىء دور الأمة، لم يحل المشكلة عن طريق التفاوض فيما بين هؤلاء الستة، في اجتماع مغلق وإنما ذهب يستشير الأمة ويسأل المسلمين من الذي ترشحونه من هؤلاء الستة؟ إلى هنا كانت الأمة لا تزال تحتفظ بدرجة كبيرة من وجودها بحيث أن عبد الرحمن بن عوف لم يستطع أن يغفل وجود الأمة يسأل هذا ويسأل ذاك من تريدون من هؤلاء الستة؟ يقول ما سألت عربياً إلاَّ وقال: علي بن أبي طالب عليه السلام وما سألت قرشياً إلاَّ وقال عثمان بن عفان يعني جماهير المسلمين كانت تقول علي بن أبي طالب عليه السلام وعشيرة واحدة معينة كانت تريد أن تنهب الحكم من الأمة كانت تقول عثمان لأن عثمان بن عفان كان تكريساً لعملية النهب بينما علي بن أبي طالب عليه السلام كان تعبيراً وتأكيداً لوجود الأمة في الميدان، ولهذا أرادته الأمة، وأرادت العشيرة عثمان.

ثم بعد هذا جاء عثمان بن عفان وفي دور عثمان بن عفان تكشَّفت المؤامرة أكثر فأكثر وامتدت أكثر فأكثر.

أصبحت العشيرة تحكم وتقول بكل صراحة بأن المال مالنا والخراج خراجنا والأرض أرضنا، إن شئنا أعطينا للآخرين وإن شئنا حرمناهم.

لكن هذا كلام يقال خارج نطاق الدستور، أما في نطاق الدستور فكانت لا تزال الصيغة الإسلامية وهي أن المال مال الله والناس سواسية، المسلمون كلهم عبيد الله لا فرق بين قرشيّهم وعربيّهم، وبين عربيّهم وأعجميّهم، بين أي مسلم وأي مسلم آخر، هذه كانت الصيغة الدستورية حتى في عهد عثمان لكن هذا الوالي الأموي المتغطرس أو ذاك الأموي المتعجرف أو هذا الأموي المستعجل والمتهور كان ينطق بواقع آخر لا يعبر عن الدستور حيث ينظر إلى الأمة على أنها قطيع يتحكم به كيف يشاء وعلى أن أرض الإسلام مزرعة ينتفع بخيراتها من يشاء هو ويحرم من خيراتها من شاء ولكن منطق الدستور الإسلامي كان هو

المتجذر في نفوس أبناء الأمة.

هذا المنطق هو أن أرض السواد ملك الأمة وأن الأمة هي صاحبة الرأي فهي القائدة وهي سيدة المواقف وهذا يعني أن المؤامرة لا تزال غير ناجحة بالرغم من الجذور بالرغم من المقدمات بالرغم من الإرهاصات النظرية والعملية بالرغم من كل ذلك المؤامرة لم تكن ناجحة، الأمة كانت هي الأمة، الأمة كانت تأتي إلى عثمان وتقول: لا نريد هذا الوالي لأن هذا الوالي منحرف لا يطبّق كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ ولم يكن عثمان بن عفان يستطيع أن يجيب بصراحة ويقول: ليس لك إرادة، هذا الوالي يمثلني أنا، وأنا الحاكم المطلق، لم يكن يستطيع عثمان بن عفان أن يقول هذا وإنما كان يعتذر ويقبل ويرجع. وهكذا كان يناور مع الأمة، يشتغل بمناورات من هذا القبيل مع هذه الأمة التي بدأت تحس بالخطر على وجودها فعبّرت الأمة تعبيراً ثورياً عن وجودها وعن كرامتها فقتلت هذه الامّة الخليفة، وبعدها اتّجهت طبيعياً إلى الإمام عليه السلام لكي يعبر من جديد عن وجودها لكي يحبط المؤامرة لكي يعيد إلى هذه الأمة كل

كرامتها خارج نطاق الدستور وداخل نطاق الدستور لكي يقضي على كل انحراف خرج به الحكام عن الدستور عن الصيغة الإسلامية للحياة.

فمن هنا كانت القضية لا تزال في بدايتها لا تزال الأمة هي الأمة لا تزال بحسب مظهرها على أقل تقدير هي تلك الأمة التي قتلت الحاكم في سبيل الحفاظ على وجودها، وعلي عليه السلام صاحب الطاقات الكبيرة هو الشخص الوحيد الذي يؤمل فيه أن يصفي عملية الانحراف.

فالظروف والملابسات لم تكن تؤدي إلى يأس... كانت تؤدي إلى أمل وما وقع خلال هذه الأربع سنوات كان يؤكد هذا الأمل فإن علياً عليه السلام لولا معاكسات جانبية لم تكن تنبع من حقيقة المشاكل الكبرى في المجتمع، لاستطاع أن يسيطر على الموقف.

لولا مسألة التحكيم مثلاً، لولا أن شعاراً معيناً طرح من قبل معاوية هذا الشعار الذي انعكس بفهم خاطىء عند جماعة معينة في جيش الإمام عليه السلام لولا هذا لكان بينه

وبين قتل معاوية وتصفيته بضعة أمتار.

إذن كان الأمل في أن علياً عليه السلام يمكنه أن يحقق الهدف ويعيد للأمة وجودها من دون حاجة إلى المساومات وأنصاف الحلول كان هذا الأمل أملاً معقولاً وكبيراً ولهذا لم يكن هناك مجوز لارتكاب أنصاف الحلول والمساومات.

ولكن هذا الأمل قد خاب كما قلنا، انتهى آخر أمل حقيقي في هذه التصفية حينما خرَّ هذا الإمام عليه السلام العظيم صريعاً في مسجده صلوات الله عليه، وانتهى آخر أمل في هذه التصفية وقدر للمؤامرة على وجود الأمة أن تنجح وأن تؤتي مفعولها كاملاً.

غير أن الإمام عليه السلام حينما فتح عينيه في تلك اللحظة العصيبة ورأى الحسن عليه السلام وهو يبكي ويشعر ويحس ويدرك بأن وفاة أبيه هي وفاة لكل هذه الآمال، أراد أن ينبهه إلى أن الخط لا يزال باقياً وإلى أن التكليف لا يزال مستمراً وأن نجاح المؤامرة لا يعني أن نلقي السلاح.

نعم المؤامرة يا ولدي نجحت ولهذا سوف تشردون

وسوف تقتلون ولكن هذا لا يعني أن المعركة انتهت يجب أن تقاوم حتى تقتل مسموماً، ويجب أن يقاوم أخوك حتى يقتل بالسيف شهيداً ولا بدَّ أن يستمر الخط حتى بعد أن سرق من الأمة وجودها لأن محاولة استرجاع الوجود إذا بقيت في الأمة، فسوف يبقى هناك نفس في الأمة سوف يبقى هناك ما يحصن الأمة ضد التميع والذوبان.

الأمة حينما تتنازل عن هذه الإرادة والشخصية لجبار من الجبابرة حينئذٍ تكون عرضة للذوبان والتميع في أتون أي فرعون من الفراعنة.

لكن إذا بقي لدى الأمة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار هذه المحاولة التي يحاولها خط علي عليه السلام ومدرسة علي عليه السلام والشهداء والصديقون من أبناء علي عليه السلام وشيعته، إذا بقيت هذه المحاولة فسوف يبقى مع هذه المحاولة أمل في أن تسترجع الأمة وجودها وعلى أقل تقدير سوف تحقق هذه المحاولة كسباً آنياً باستمرار وهو

تحصين الأمة ضد التميع والذوبان المطلق في إرادة ذلك الحاكم وفي إطار ذلك الحاكم. وهذا ما وقع.

* * *

الفصل الثالث

علي والشيعة

* هل أوصى الرَّسول لعلي (ع)؟
* وكيف ولد التَّشيع؟
* كيف وجدت الشيعة؟

تمهيد

جرى بعض الباحثين المحدثين، على دراسة التشيع بوصفه ظاهرة طارئة في المجتمع الإسلامي، والنظر إلى القطاع الشيعي في جسم الأمة الإسلامية بوصفه قطاعاً تكوّن على مر الزمن، نتيجة لأحداث وتطورات اجتماعية معينة أدّت إلى تكوين فكري ومذهبي خاص بجزءٍ من ذلك الجسم الكبير ثم اتسع الجزء بالتدريج.

وهؤلاء الباحثون بعد أن يفترضوا ذلك، يختلفون في تلك الأحداث والتطوُّرات التي أدت إلى نشوء تلك الظاهرة وولادة ذلك الجزء.

فمنهم من يفترض أن «عبد الله بن سبأ» ونشاطه السياسي المزعوم هو الأساس لذلك التكتل الشيعي.

ومنهم من يردُّ ظاهرة التشيع إلى عهد خلافة الإمام علي عليه الصلاة والسلام، وما هيَّأه ذلك العهد من مقام

سياسي واجتماعي على مسرح الأحداث. ومنهم من يزعم أن ظهور الشيعة يكمن في أحداث متأخرة عن ذلك في التسلسل التاريخي للمجتمع الإسلامي.

والذي دعا فيما أظن كثيراً من هؤلاء الباحثين إلى هذا الافتراض والاعتقاد: بأن التشيع ظاهرة طارئة في المجتمع الإسلامي، هو أن الشيعة لم يكونوا يمثلون في صدر الإسلام إلا جزءاً ضئيلاً من مجموع الأمة الإسلامية.

فقد أوحت هذه الحقيقة شعوراً بأن اللاتشيع كان هو القاعدة في المجتمع الإسلامي، وأن التشيع هو الاستثناء والظاهرة الطارئة التي يجب اكتشاف أسبابها من خلال تطورات المعارضة للوضع السائد.

ولكن اتخاذ الكثرة العددية والضآلة النسبية، أساساً لتمييز القاعدة والاستثناء أو الأصل والانشقاق ليس شيئاً منطقياً، فمن الخطأ إعطاء الإسلام اللاشيعي صفة الأصالة على أساس الكثرة العدديّة، وإعطاء الإسلام الشيعي صفة الظاهرة الطارئة ومفهوم الانشقاق، فإن هذا لا يتفق مع

طبيعة الانقسامات العقائدية.

إننا كثيراً ما نلاحظ انقساماً عقائدياً في إطار رسالة واحدة تقوم على أساس بعض الاختلاف في تحديد معالم تلك الرسالة وقد لا يكون القسمان العقائديان متكافئين من الناحية العددية.

ولكنهما متكافئان في أصالتهما ومعبّران بدرجة واحدة عن الرسالة المختلف بشأنها، ولا يجوز بحال من الأحوال أن نبني تصوراتنا عن الإنقسام العقائدي داخل إطار الرسالة الإسلامية إلى شيعة وغيرهم على الناحية العددية.

كما لا يجوز أيضاً أن نقر ولادة الأطروحة الشيعية في إطار الرسالة الإسلامية بولادة كلمة «الشيعة» أو «التشيع» كمصطلح واسم خاص لفرقة محددة من المسلمين، لأن ولادة الأسماء والمصطلحات شيء ونشوء المحتوى أو الأطروحة شيء آخر.

فإذا كنا لا نجد كلمة «الشيعة» في اللغة السائدة في حياة الرسول ﷺ أو بعد وفاته، فلا يعني هذا أن

الأطروحة ذات الاتجاه الشيعي لم تكن موجودة.

فبهذه الروح يجب أن نعالج قضية التشيع والشيعة، ونجيب على السؤالين التاليين:

كيف ولد التشيع؟

وكيف وجدت الشيعة؟

أما فيما يتعلق بالسؤال الأول (كيف ولد التشيع)؟

فنحن نستطيع أن نعتبر التشيع نتيجة طبيعية للإسلام، وممثلاً لأطروحة كان من المفروض للدعوة الإسلامية أن تتوصل إليها حفاظاً على نموها السليم.

ويمكننا أن نستنتج هذه الأطروحة استنتاجاً منطقياً من الدعوة التي كان الرسول الأعظم ﷺ يتزعم قيادتها بحكم طبيعة تكوينها والظروف التي عاشتها، فإن النبي كان يباشر قيادة دعوة إنقلابية، ويمارس عملية تغيير شاملة للمجتمع وأعرافه وأنظمته ومفاهيمه. ولم يكن الطريق قصيراً أمام عملية التغيير هذه، بل كان طريقاً طويلاً وممتداً بإمتداد

الفواصل المعنوية الضخمة بين الجاهلية والإسلام، فكان على الدعوة التي يمارسها النبي أن تبدأ بإنسان الجاهلية فتنشئه إنشاءً جديداً، وتجعل منه الإنسان الإسلامي الذي يحمل النور الجديد وتجتث منه كل جذور الجاهلية ورواسبها.

وقد خطا القائد الأعظم ﷺ بعملية التغيير خطوات مدهشة في برهة قصيرة، وكان على عملية التغيير أن تواصل طريقها الطويل حتى بعد وفاة النبي ﷺ الذي أدرك منذ فترة قبل وفاته أن أجله قد دنا، وأعلن ذلك بوضوح في «حجّة الوداع» ولم يفاجئه الموت مفاجأة.

وهذا يعني أنه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة بعده، حتى إذا لم ندخل في الموقف عامل الاتصال الغيبي والرعاية الإلهية للرسالة عن طريق الوحي. وفي هذا الضوء يمكننا أن نلاحظ أن النبي ﷺ كان أمامه ثلاث طرق بالإمكان إنتهاجها تجاه مستقبل الدعوة.

الطريق الأول

أن يقف من مستقبل الدعوة موقفاً سلبياً، ويكتفي بممارسة دوره في قيادة الدعوة وتوجيهها فترة حياته ويتركها في مستقبلها للظروف والصدف.

وهذه السلبية لا يمكن افتراضها في النبي ﷺ، لأنها إنما تنشأ من أحد أمرين كلاهما لا ينطبقان عليه.

الأمر الأول: الاعتقاد بأن هذه السلبية والإهمال لا تؤثر على مستقبل الدعوة، وأن الأمة التي سوف تخلف الدعوة قادرة على التصرُّف بالشكل الذي يحمي الدعوة ويضمن عدم الانحراف.

وهذا الاعتقاد لا مبرر له من الواقع إطلاقاً، بل إن طبيعة الأشياء كانت تدل على خلافه، لأن الدعوة بحكم كونها عملاً تغييرياً إنقلابياً في بدايته، يستهدف بناء أمة واستئصال كل الجذور الجاهلية منها، تتعرض لأكبر الأخطار إذا خلت الساحة من قائدها دون أيِّ تخطيط فهنالك الأخطار التي تنبع عن طبيعة مواجهة الفراغ دون أي تخطيط

سابق، وعن الضرورة الآنية لاتخاذ موقف مرتجل في ظل الصدمة العظيمة بفقد النبي. فإن الرسول إذا ترك الساحة دون تخطيط لمصير الدعوة فسوف تواجه الأمة ولأول مرة مسؤولية التصرُّف بدون قائدها تجاه أخطر مشاكل الدعوة، وهي لا تملك أيّ مفهوم مسبق بهذا الصدد، وسوف يتطلب منها الموقف تصرفاً سريعاً آنياً، بالرغم من خطورة المشكلة لأن الفراغ لا يمكن أن يستمر، وسوف يكون هذا التصرف السريع في لحظة الصدمة التي تمنى بها الأمة، وهي تشعر بفقدها لقائدها الكبير. هذه الصدمة التي تزعزع بطبيعتها سير التفكير وتبعث على الاضطراب، حتى أنها جعلت صحابياً معروفاً يعلن بفعل الصدمة أن النبي ﷺ لم يمت ولن يموت.

وهناك الأخطار التي تنجم عن عدم النضج الرسالي بدرجة النبي ﷺ لموضوعية التصرف الذي سوف يقع، وانسجامه مع الإطار الرسالي للدعوة وتغلبه على التناقضات الكامنة التي كانت ولا تزال تعيش في زوايا نفوس المسلمين، على أساس الانقسام إلى: مهاجرين وأنصار، أو

قريش وسائر العرب، أو مكة والمدينة.

وهناك الأخطار التي تنشأ لوجود القطّاع المستتر بالإسلام والذي كان يكيد له في حياة النبي ﷺ باستمرار، وهو القطاع الذي كان يسميه القرآن بـ «المنافقين».

وإذا أضفنا إليهم عدداً كبيراً ممن أسلم بعد الفتح استسلاماً للأمر الواقع لا انفتاحاً على الحقيقة، نستطيع أن نقدر الخطر الذي يمكن لهذه العناصر أن تولده، وهي تجد فرصة لنشاط واسع في فراغ كبير مع خلو الساحة من رعاية القائد.

فلم تكن إذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي ﷺ شيئاً يمكن أن يخفى على أي قائد مارس العمل العقائدي فضلاً عن خاتم الأنبياء.

وإذا كان أبو بكر لم يشأ أن يترك الساحة دون أن يتدخل تدخلاً إيجابياً في ضمان مستقبل الحكم بحجة الاحتياط للأمر.

وإذا كان الناس قد هرعوا إلى عمر حين ضُرب

قائلين: «يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً»[١]، خوفاً من الفراغ الذي خلَّفه الخليفة، بالرغم من التركز السياسي والاجتماعي الذي كانت الدعوة بلغته بعد عقد من وفاة الرسول ﷺ . . .

وإذا كان عمر قد أوصى إلى ستة تجاوباً مع شعور الآخرين بالخطر . .

وإذا كان عمر يدرك بعمق خطورة الموقف في يوم السقيفة وما كان بالإمكان أن تؤدي إليه خلافة أبي بكر بشكلها المرتجل من مضاعفات، إذ يقول: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة غير أن الله وقى شرها»[٢].

وإذا كان أبو بكر نفسه يعتذر عن تسرُّعه إلى قبول الحكم وتحمُّل المسؤولية الكبيرة بأنه شعر بخطورة الموقف وضرورة الاقدام السريع على حلها إذ يقول: ـ وقد عوتب على السلطة: ـ «إن رسول الله قُبض والناس حديثو عهد

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٦.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠.

بالجاهلية فخشيت أن يفتتنوا وإن أصحابي حملونيها»[١]. . .

إذا كان كل ذلك صحيحاً، فمن البديهي أيضاً أن يكون رائد الدعوة ونبيُّها أكثر شعوراً بخطر السلبية، وأكبر إدراكاً وأعمق فهماً لطبيعة الموقف ومتطلبات العمل التغييري الذي يمارسه في أمة حديثة عهد بالجاهلية على حد تعبير أبي بكر.

الأمر الثاني: الذي يمكن أن يفسر سلبية القائد تجاه مستقبل الدعوة ومصيرها بعد وفاته، إنه بالرغم من شعوره بخطر هذه السلبية لا يحاول تحصين الدعوة ضد ذلك الخطر، لأنه ينظر إلى الدعوة نظرة مصلحية، فلا يهمه إلا أن يحافظ عليها ما دام حياً ليستفيد منها ويستمتع بمكاسبها، ولا يعنى بحماية مستقبلها بعد وفاته.

وهذا التفسير لا يمكن أن يصدق على النبي ﷺ، حتى إذا لم نلاحظه بوصفه نبياً ومرتبطاً بالله سبحانه وتعالى

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ٦/ ٤٢.

في كل ما يرتبط بالرسالة، وافترضناه قائداً رسالياً كقادة الرسالات لا يملك نظيراً للقائد الرسول، في إخلاصه لدعوته وتفانيه فيها وتضحيته من أجلها إلى آخر لحظة من حياته، وكل تاريخه يبرهن على ذلك، وقد كان ﷺ على فراش الموت وقد ثقل مرضه وهو يحمل همَّ معركة كان قد خطّط لها وجهّز جيش «أسامة» لخوضها، فكان يقول: «جهزوا جيش أسامة، انفروا جيش أسامة، أرسلوا بعث أسامة» ويكرِّر ذلك ويغمى عليه بين الحين والحين[1].

فإن اهتمام الرسول ﷺ بقضية من قضايا الدعوة العسكرية يبلغ إلى هذه الدرجة وهو يجود بنفسه، على فراش الموت ولا يمنعه علمه بأنه سيموت قبل أن يقطف ثمار تلك المعركة عن تبنّيه لها، وأن تكون همه الشاغل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة... فكيف يمكن أن نتصور أن النبي ﷺ لا يعيش هموم مستقبل الدعوة ولا يخطط لسلامتها بعد وفاته من الأخطار المرتقبة.

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير وغيره.

وأخيراً، فإن في سلوك الرسول في مرضه الأخير رقماً واحداً يكفي لنفي الطريق الأول.

وللتدليل على أن القائد الأعظم كان أبعد ما يكون عن فرضية الموقف السلبي تجاه مستقبل الدعوة وعدم الشعور بالخطر أو عدم الاهتمام بشأنه، وهذا الرقم أجمعت صحاح المسلمين جميعاً سنة وشيعة على نقله، وهو أن الرسول لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال: «ائتوني بالكتف والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»[1].

فإن هذه المحاولة من القائد الكريم المتفق على نقلها وصحتها، تدلُّ بكل وضوح على أنه كان يفكر في أخطار المستقبل، ويدرك بعمق ضرورة التخطيط لتحصين الأمة من الانحراف، وحماية الدعوة من التميّع والانهيار، فليس من الممكن افتراض الموقف السلبي بحال من الأحوال.

---

(١) مسند أحمد: ١/ ٣٠٠، وصحيح مسلم ج٢ في آخر الوصايا، وصحيح البخاري: ج١ كتاب الصلح.

الطريق الثاني

أن يخطط الرسول القائد ﷺ لمستقبل الدعوة بعد وفاته ويتخذ موقفاً إيجابياً، فيجعل القيمومة على الدعوة وقيادة التجربة للأمة الممثلة على أساس نظام الشورى في جيلها العقائدي الأول، الذي يضمُّ مجموعة المهاجرين والأنصار، فهذا الجيل الممثل للأمة هو الذي سيكون قاعدة للحكم ومحور قيادة الدعوة في خط نموها.

وهنا يلاحظ أن طبيعة الأشياء والوضع العام الثابت عن الرسول ﷺ والدعوة والدعاة، يدحض هذه الفرضية وينفي أن يكون النبي قد انتهج هذا الطريق واتَّجه إلى ربط قيادة الدعوة بعده مباشرة بالأمة، ممثلة في جيلها الطليعي من المهاجرين والأنصار على أساس نظام الشورى.

وفيما يلي بعض النقاط التي توضِّح ذلك:

١ ـ لو كان النبي ﷺ قد اتخذ من مستقبل الدعوة بعده موقفاً إيجابياً يستهدف وضع نظام الشورى موضع

التطبيق بعد وفاته مباشرة وإسناد زعامة الدعوة إلى القيادة التي تنبثق عن هذا النظام، لكان من أبده الأشياء التي يتطلبها هذا الموقف الإيجابي أن يقوم الرسول القائد ﷺ بعملية توعية للأمة والدعاة على نظام الشورى وحدوده وتفاصيله وإعطائه طابعاً دينياً مقدَّساً، وإعداد المجتمع الإسلامي إعداداً فكرياً وروحياً لتقبل هذا النظام، وهو مجتمع نشأ من مجموعة من العشائر لم تكن قد عاشت قبل الإسلام وضعاً سياسياً على أساس الشورى، وإنما كانت تعيش في الغالب وضع زعامات قبلية وعشائرية تتحكم فيها القوة والثروة وعامل الوراثة إلى حد كبير.

ونستطيع بسهولة أن ندرك أن النبي ﷺ لم يمارس عملية التوعية في نظام الشورى وتفاصيله التشريعية أو مفاهيمه الفكرية، لأن هذه العملية لو كانت قد أنجزت لكان من الطبيعي أن تنعكس وتتجسّد في الأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ أو في ذهنية الأمة، أو على أقل تقدير في ذهنية الجيل الطليعي منها الذي يضمُّ المهاجرين والأنصار بوصفه هو المكلف بتطبيق نظام الشورى، مع أننا لا نجد في

الأحاديث عن النبي ﷺ أي صورة تشريعية محددة لنظام الشورى.

وأما ذهنية الأمة أو ذهنية الجيل الطليعي منها، فلا نجد فيها أي ملامح أو انعكاسات محددة لتوعية من ذاك القبيل.

فإن هذا الجيل كان يحتوي على إتجاهين:

أحدهما: الاتجاه الذي تزعمه أهل البيت.

والآخر: الاتجاه الذي تمثله السقيفة والخلافة التي قامت فعلاً بعد وفاة النبي ﷺ.

أما الاتجاه الأول: فمن الواضح أنه كان يؤمن بالوصاية والإمامة، ويؤكد على القرابة، ولم ينعكس منه الإيمان بفكرة الشورى.

وأما الاتجاه الثاني: فكل الأرقام والشواهد في حياته وتطبيقه العملي تدلُّ بصورة لا تقبل الشك على أنه لم يكن يؤمن بالشورى ولم يبن ممارساته الفعلية على أساسها،

والشيء نفسه نجده في سائر قطاعات ذلك الجيل الذي عاصر وفاة الرسول الأعظم من المسلمين.

نلاحظ بهذا الصدد للتأكد من ذلك، أن أبا بكر حينما اشتدت به العلة، عهد إلى عمر بن الخطاب فأمر عثمان أن يكتب عهده، فكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله إلى المؤمنين والمسلمين. سلام عليكم، إني أحمد إليكم الله. أما بعد، فإني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا وأطيعوا».

ودخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال: كيف أصبحت يا خليفة رسول الله؟ فقال: أصبحت مولياً وقد زدتموني على ما بي. ورأيتموني استعملت رجلاً منكم، فكلكم قد أصبح ورماً أنفه، وكلٌّ قد أصبح يطلبها لنفسه[1].

وواضح من هذا الاستخلاف وهذا الاستنكار

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/١٢٦ ـ ١٢٧.

للمعارضة أن الخليفة لم يكن يفكر بعقلية نظام الشورى وأنه كان يرى من حقه تعيين الخليفة، وأن هذا التعيين يفرض على المسلمين الطاعة، ولهذا أمرهم بالسمع والطاعة، فليس هو مجرّد ترشيح أو تنبيه، بل هو إلزام ونصب.

ونلاحظ أيضاً أن عمر رأى هو الآخر أنّ من حقه فرض الخليفة على المسلمين، ففرضه في نطاق ستة أشخاص، وأوكل أمر التعيين إلى الستة أنفسهم دون أن يجعل لسائر المسلمين أي دور حقيقي في الانتخاب.

إن عقلية نظام الشورى لم تتمثل في طريقة الاستخلاف التي انتهجها عمر كما لم تتمثل في الطريقة التي سلكها الخليفة الأول، وقد قال عمر حين طلب منه الناس الاستخلاف:

«لو أدركني أحد رجلين لجعلت هذا الأمر إليه ولوثقت به سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة الجراح، ولو كان سالم حياً ما جعلتها شورى»[1].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٤٨.

وقال أبو بكر لعبد الرحمن بن عوف وهو يناجيه على فراش الموت: «وددت لو أني كنت سألت رسول الله ﷺ لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد»[١].

وحينما تجمع أنصار السقيفة لتأمير سعد بن عبادة، قال منهم قائل: «إن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون ونحن عشيرته وأولياؤه، قالت طائفة منهم: إذن نقول منا أمير ومنكم أمير لن نرضى بدون هذا أبداً».

وحينما خطب أبو بكر فيهم قال:

«كنا معاشر المسلمين والمهاجرين أول الناس إسلاماً، والناس لنا في ذلك تبع ونحن عشيرة رسول الله وأوسط العرب أنساباً».

وحينما اقترح الأنصار أن تكون الخلافة دورية بين المهاجرين والأنصار، ردَّ أبو بكر قائلاً: إن رسول الله ﷺ لما بُعث عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخالفوه

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٢.

وشاقوه، وخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، فهم أول من عبد الله في الأرض، وهم أولياؤه وعترته وأحق الناس بالأمر بعده، ولا ينازعهم فيه إلا ظالم.

وقال الحباب بن المنذر وهو يشجع الأنصار على التمسك: «أملكوا عليكم أيديكم، إنما الناس في فيئكم وظلكم، فإن أبى هؤلاء فمنا أمير ومنهم أمير».

فردَّ عليه عمر قائلاً: «هيهات، لا يجتمع سيفان في غمد، من ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة»[1].

إن الطريقة التي مارسها الخليفة الأول والخليفة الثاني للاستخلاف، وعدم استنكار تلك الطريقة والروح العامة التي سادت على الجناحين المتنافسين من الجيل الطليعي «المهاجرين والأنصار» يوم السقيفة، والاتجاه الواضح الذي بدا لدى المهاجرين نحو تقرير مبدأ انحصار السلطة بهم

---

(١) راجع في نصوص يوم السقيفة شرح النهج: ٦/٦ - ٩.

وعدم مشاركة الأنصار في الحكم، والتأكيد على المبررات الوراثية التي تجعل من عشيرة النبي ﷺ أولى العرب بميراثه، واستعداد كثير من الأنصار والآخر من المهاجرين وإعلان أبي بكر الذي فاز بالخلافة في ذلك اليوم عن أسفه لعدم السؤال من النبي عن صاحب الأمر بعده...؟

وكل ذلك يوضح بدرجة لا تقبل الشك أن هذا الجيل الطليعي من الأمة الإسلامية ـ بما فيه القطاع الذي تسلَّم الحكم بعد وفاة النبي ـ لم يكن يفكر بذهنية الشورى، ولم تكن لديه فكرة محدَّدة عن هذا النظام، فكيف يمكن أن نتصور أن النبي مارس عملية توعية على نظام الشورى تشريعياً وفكرياً، وأعدَّ جيل المهاجرين والأنصار لتسلم قيادة الدعوة بعده على أساس هذا النظام، ثم لا نجد لدى هذا الجيل تطبيقاً واقعياً لهذا النظام أو مفهوماً محدداً عنه؟!!

كما أننا لا يمكن أن نتصور من ناحية أخرى، أن الرسول القائد ﷺ وضع هذا النظام وحدَّده تشريعياً

ومفهومياً، ثم لا يقوم بتوعية المسلمين عليه وتثقيفهم به. . . .

وهكذا يبرهن ما تقدم على أنَّ النبي ﷺ لم يكن قد طرح الشورى كنظام بديل على الأمة إذ ليس من الممكن عادة أن تطرح الشورى بالدرجة التي تتناسب مع أهميتها، ثم تختفي اختفاءً كاملاً عن الجميع وعن كل الاتجاهات.

ومما يوضح هذه الحقيقة بدرجة أكبر أن نلاحظ:

أولاً: إن نظام الشورى كان نظاماً جديداً بطبيعته على تلك البيئة التي لم تكن قد مارست قبل النبوة، أي نظام مكتمل للحكم، فكان لا بدّ من توعية مكثفة ومركزة عليه كما أوضحنا ذلك.

ثانياً: إن الشورى كفكرة مفهوم غائم لا يكفي طرحه هكذا، لإمكان وضعه موضع التنفيذ ما لم تشرح تفاصيله وموازينه ومقاييس التفضيل عند اختلاف أهل الشورى، وهل تقوم هذه المقاييس على أساس العدد والكمّ، أو على أساس الكيف والخبرة، إلى غير ذلك مما يحدّد للفكرة

معالمها ويجعلها صالحة للتطبيق فور وفاة النبي ﷺ.

ثالثاً: إن الشورى تعبِّر في الحقيقة عن ممارسة للأمة بشكل وآخر للسلطة عن طريق التشاور وتقرير مصير الحكم، فهي مسؤولية تتعلق بعدد كبير من الناس هم كل الذين تشملهم الشورى، وهذا يعني أنها لو كانت حكماً شرعياً يجب وضعه موضع التنفيذ عقيب وفاة النبي ﷺ لكان لا بدّ من طرحه على أكبر عدد من أولئك الناس، لأن موقفهم من الشورى إيجابي، وكل منهم يتحمَّل قسطاً من المسؤولية.

وكل هذه النقاط تبرهن على أن النبي ﷺ في حالة تبنيه لنظام الشورى كبديل له بعد وفاته يتحتم عليه أن يطرح فكرة الشورى على نطاق واسع وبعمق، وبإعداد نفسي عام، وملأ لكل الثغرات وابراز لكل التفاصيل التي تجعل الفكرة عملية، وطرح للفكرة على هذا المستوى كمَّاً وكيفاً وعمقاً، لا يمكن أن يمارس من قبل الرسول الأعظم ﷺ، ثم تنطمس معالمه لدى جميع المسلمين الذين عاصروه إلى

حين وفاته.

وقد يفترض أن النبي ﷺ كان قد طرح فكرة الشورى بالصورة اللازمة وبالحجم الذي يتطلبه الموقف كمّاً وكيفاً، واستوعبها المسلمون، غير أن الدوافع السياسية استيقظت فجأة وحجبت الحقيقة وفرضت على الناس كتمان ما سمعوه من النبي فيما يتصل بالشورى وأحكامها وتفاصيلها.

غير أن هذا الافتراض ليس عملياً لأن تلك الدوافع مهما قيل عنها فهي لا تشمل المسلمين الاعتياديين من الصحابة الذين لم يساهموا في الأحداث السياسية عقب وفاة النبي ﷺ ولا في بناء هرم السقيفة، وكان موقفهم موقف المترسل وهؤلاء يمثلون في كل مجتمع جزءاً كبيراً من الناحية العددية مهما طغى الجانب السياسي عليه.

فلو كانت الشورى مطروحة من قبل النبي ﷺ بالحجم المطلوب لما اختص الاستماع إلى نصوصها بأصحاب تلك الدوافع، بل لسمعها مختلف الناس،

ولانعكست بصورة طبيعية عن طريق الاعتياديين من الصحابة، كما انعكست فعلاً النصوص النبوية على فضل الإمام علي ووصايته عن طريق الصحابة أنفسهم، فكيف لم تحل الدوافع السياسية دون أن تصل إلينا مئات الأحاديث عن طريق الصحابة عن النبي ﷺ في فضل علي عليه السلام ووصايته ومرجعيته، على الرغم من تعارض ذلك مع الاتجاه السائد وقتئذٍ، ولم يصلنا شيء ملحوظ من ذلك فيما يتصل بفكرة الشورى. بل حتى أولئك الذين كانوا يمثلون الاتجاه السائد، كانوا في كثير من الأحيان يختلفون في المواقف السياسية، وتكون من مصلحة هذا الفريق أو ذاك أن يرفع شعار الشورى ضد الفريق الآخر، ومع ذلك لم نعهد أنَّ فريقاً منهم استعمل هذا الشعار كحكم سمعه من النبي ﷺ، فلاحظوا على سبيل المثال موقف طلحة من تعيين أبي بكر لعمر واستنكاره لذلك وإعلانه السخط على هذا التعيين، فإنه لم يفكر على الرغم من ذلك أن يلعب ضد هذا التعيين بورقة الشورى، ويشجب موقف أبي بكر، بأنه يخالف ما هو المسموع من النبي عن الشورى والانتخاب.

٢ ـ إن النبي ﷺ لو كان قد قرّر أن يجعل من الجيل الإسلامي الرائد الذي ضمَّ المهاجرين والأنصار من صحابته قيّماً على الدعوة ومسؤولاً عن مواصلة عملية التغيير، فهذا يحتم على الرسول القائد ﷺ أن يعبىء هذا الجيل تعبئة رسالية وفكرية واسعة، يستطيع أن يمسك بالنظرية بعمق ويمارس التطبيق على ضوئها بوعي، ويضع للمشاكل التي تواجهها الدعوة باستمرار الحلول النابعة من الرسالة خصوصاً إذا لاحظنا أن النبي ﷺ كان الذي بشَّرَ بسقوط كسرى وقيصر يعلم بأن الدعوة مقبلة على فتوح عظيمة، وأن الأمة الإسلامية سوف تنظم إليها في غدٍ قريب شعوب جديدة ومساحة كبيرة تواجه مسؤولية توعية تلك الشعوب على الإسلام وتحصين الأمة من أخطار هذا الانفتاح، وتطبيق أحكام الشريعة على الأرض المفتوحة وأهل الأرض، وبالرغم من أن الجيل الرائد من المسلمين كان أنظف الأجيال التي توارثت الدعوة وأكثرها استعداداً للتضحية، لا نجد فيه ملامح ذلك الإعداد للقيمومة على الدعوة، والتثقيف الواسع العميق على مفاهيمها، والأرقام

التي تبرز هذا النفي كثيرة لا يمكن استيعابها في هذا المجال.

ويمكننا أن نلاحظ بهذا الصدد، إن مجموع ما نقله الصحابة من نصوص عن النبي ﷺ في مجال التشريع لا يتجاوز بضع مئات من الأحاديث، بينما كان عدد الصحابة يناهز اثني عشر ألفاً على ما أحصته كتب التاريخ وكان النبي ﷺ يعيش مع الآلاف من هؤلاء في بلد واحد وفي مسجد واحد صباحاً ومساءً، فهل يمكن أن نجد في هذه الأرقام ملامح الإعداد الخاص؟

والمعروف عن الصحابة أنهم كانوا يتحاشون من ابتداء النبي ﷺ بالسؤال، حتى أن أحدهم كان ينتظر فرصة مجيء أعرابي من خارج المدينة يسأل ليسمع الجواب، وكانوا يرون أن من المطلوب الترفع عن السؤال عن حكم قضايا لم تقع بعد.

ومن أجل ذلك قال عمر على المنبر: «احرج بالله

على رجل سأل عما لم يكن، فإن النبي قد بيّن ما هو كائن»[١].

وقال: «لا يحل لأحد أن يسأل عما لم يكن، إن الله قد قضى فيما هو كائن».

وجاء رجل يوماً إلى ابن عمر يسأله عن شيء، فقال له ابن عمر: لا تسأل عما لم يكن، فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن[٢].

وسأل رجل أبيّ بن كعب عن مسألة، قال: يا بني أكان الذي سألتني عنه؟ قال: لا. قال: أما لا، فأجلني حتى يكون[٣].

وقرأ عمر يوماً القرآن، فانتهى إلى قوله تعالى:

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[٤].

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ٥٠.
(٢) نفس المصدر السابق والصفحة.
(٣) سنن الدارمي: ١/ ٥٦.
(٤) عبس: ٢٧ ـ ٣١.

فقال: كل هذا عرفناه فما الأب؟ ثم قال: هذا لعمر الله هو التكلّف، فما عليك أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه.

وهكذا نلاحظ اتجاهاً لدى الصحابة إلى العزوف عن السؤال إلا في حدود المشاكل المحددة الواقعة. وهذا الاتجاه هو الذي أدى إلى ضآلة النصوص التشريعية التي نقلوها عن الرسول ﷺ، وهو الذي أدّى بعد ذلك للاحتياج إلى مصادر أخرى غير الكتاب والسنة، كالاستحسان والقياس، وغيرهما من ألوان الاجتهاد التي يتمثل فيها العنصر الذاتي للمجتهد؛ الأمر الذي أدّى إلى تسرُّب شخصية الإنسان بذوقه وتصوراته الخاصة إلى التشريع.

وهذا الاتجاه أبعد ما يكون عن عملية الإعداد الرسالي الخاص التي كانت تتطلب تثقيفاً واسعاً لذلك الجيل وتوعية له على حدود الشريعة للمشاكل التي سوف يواجهها عبر قيادته.

وكما أمسك الصحابة عن مبادرة النبي بالسؤال كذلك أمسكوا عن تدوين آثار الرسول الأعظم وسنته على الرغم من أنها المصدر الثاني من مصادر الإسلام، ومن أن التدوين كان هو الأسلوب الوحيد للحفاظ عليها وصيانتها من الضياع والتحريف، فقد أخرج الهروي في ذم الكلام عن طريق يحيى بن سعد عن عبد الله بن دينار قال: لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً. بل أن الخليفة الثاني على ما في طبقات ابن سعد ظلّ يفكر في الموقف الأفضل تجاه سنة الرسول واستمر به التفكير شهراً ثم أعلن منعه عن تسجيل شيء في ذلك، وبقيت سنّة الرسول الأعظم التي هي أهم مصدر للإسلام بعد الكتاب الكريم، في ذمة القدر يتحكم فيها النسيان تارة والتحريف أخرى، وموت الحفّاظ ثالثة طيلة مائة وخمسين سنة تقريباً.

ويستثنى من ذلك اتجاه أهل البيت، فإنهم دأبوا على التسجيل والتدوين منذ العصر الأول، وقد استفاضت

رواياتنا عن أئمة أهل البيت بأن عندهم كتاباً ضخماً مدوناً بإملاء رسول الله ﷺ وخط علي بن أبي طالب عليه السلام فيه جميع سنن رسول الله ﷺ.

فهل ترى بربك أن ذلك الاتجاه الساذج ـ إن كانت المسألة مسألة سذاجة ـ الذي ينفر من السؤال عن واقعة قبل حدوثها ويرفض تسجيل سنن النبي ﷺ بعد صدورها كفؤ لزعامة الرسالة الجديدة وقيادتها في أهم وأصعب مراحل مسيرتها الطويلة؟ أو هل ترى بربك أن الرسول الأعظم ﷺ كان يترك سنته مبعثرة بدون ضبط وتسجيل مع أنه أمر بالتمسك بها؟ أو لم يكن من الضروري إذا كان يمهد لفكرة الشورى حقاً أن يحدد للشورى دستورها ويضبط سنته لكي تسير الشورى على منهاج ثابت محدد لا تتلاعب به الأهواء؟.

أو ليس التفسير الوحيد المعقول لهذا الموقف من النبي أنه كان قد أعدّ الإمام علياً للمرجعية وزعامة التجربة بعده وأودعه سنته كاملة وعلّمه ألف باب من العلم؟!

وقد اثبتت الأحداث بعد وفاة النبي ﷺ أن جيل المهاجرين والأنصار، لم يكن يملك أي تعليمات محدّدة عن كثير من المشاكل الكبيرة التي كانت من المفروض أن تواجهها الدعوة بعد النبي ﷺ حتى أن مساحة هائلة من الأرض التي امتدّ إليها الفتح الإسلامي لم يكن لدى الخليفة والوسط الذي يسنده أي تصور محدّد عن حكمها الشرعي وعما إذا كانت تقسم بين المقاتلين أم تجعل وقفاً على المسلمين عموماً.

فهل يمكننا أن نتصور أن النبي ﷺ يؤكد للمسلمين أنهم سوف يفتحون أرض كسرى وقيصر ويجعل من جيل المهاجرين والأنصار القيّم على الدعوة والمسؤول عن هذا الفتح ثم لا يخبره بالحكم الشرعي الذي يجب أن يطبق على تلك المساحة الهائلة من الدنيا التي سوف يمتد إليها الإسلام؟

بل إننا نلاحظ أكثر من ذلك، أن الجيل المعاصر للرسول ﷺ لم يكن يملك تصورات واضحة محددة حتى

في مجال القضايا الدينية التي كان النبي يمارسها مئات المرات وعلى مرأى ومسمع من الصحابة.

ونذكر على سبيل المثال لذلك، الصلاة على الميت، فإنها عبادة كان النبي ﷺ قد مارسها علانية مئات المرات، وأدّاها في مشهد عام في المشيعين والمصلين، وبالرغم من ذلك يبدو أن الصحابة كانوا لا يجدون ضرورة لضبط صورة هذه العبادة ما دام النبي ﷺ يؤديها وما داموا يتابعون فيها النبي فصلاً بعد فصل، ولهذا وقع الاختلاف بينهم بعد وفاة النبي في عدد التكبيرات في صلاة الميت.

فقد أخرج الطحاوي عن إبراهيم قال: قُبض رسول الله والناس مختلفون في التكبير على الجنازة لا تشاء أن تسمع رجلاً يقول: سمعت رسول الله يكبر سبعاً، والآخر يقول: سمعت رسول الله يكبر خمساً، وآخر يقول: سمعت رسول الله يكبر أربعاً، فما اختلفوا في ذلك حتى قبض أبو بكر، فلما ولي عمر ورأى اختلاف الناس في ذلك، شق عليه جداً، فأرسل إلى رجال من أصحاب رسول الله ﷺ

فقال: إنكم معاشر أصحاب رسول الله! متى تختلفون على الناس يختلفون من بعدكم، ومتى تجتمعون على أمر يجتمع الناس عليه، فانظروا ما تجمعون عليه، فكأنما أيقظهم، فقالوا: نعم ما رأيت يا أمير المؤمنين(١).

وهكذا نجد أن الصحابة كانوا في حياة النبي ﷺ يتكلمون غالباً على شخص النبي ﷺ، ولا يشعرون بضرورة الاستيعاب المباشر للأحكام والمفاهيم ما داموا في كنف النبي ﷺ.

وقد تقول: إنَّ هذه الصورة التي عرضت عن الصحابة وما فيها من أرقام على عدم كفاءتهم للقيادة يتعارض مع ما نؤمن به جميعاً من أن التربية النبوية احرزت درجة هائلة من النجاح، وحققت جيلاً رسالياً رائعاً!

والجواب: إنا بما قدمناه قد حددنا الصورة الواقعية لذلك الجيل الواسع الذي عاصر وفاة النبي ﷺ دون أن نجد في ذلك ما يتعارض مع التقييم الايجابي بدرجة عالية

---

(١) عمدة القاري: ٤/١٢٩.

للتربية النبوية التي مارسها الرسول ﷺ في حياته الشريفة لأننا في نفس الوقت الذي نؤمن فيه بأن التربية النبوية كانت مثلاً ربانياً رائعاً وبعثاً رسالياً متميزاً في تاريخ العمل النبوي على مرّ الزمن نجد أن الإيمان بذلك والوصول إلى تقييم حقيقي لمحصول هذه التربية ونتائجها لا يقوم على أساس ملاحظة النتائج بصورة منفصلة عن ظروف التربية وملابساتها، ولا على أساس ملاحظة الكم بصورة منفصلة عن الكيف، ومن أجل توضيح ذلك خذ هذا المثال، نفترض مدرساً يدرس عدداً من الطلبة اللغة الانكليزية وآدابها، ونريد أن نقيّم قدرته التدريسية، فإننا لا نكتفي بمجرّد دراسة مدى ما وصل إليه هؤلاء الطلبة من ثقافة واطّلاع على اللغة الانكليزية وآدابها، وإنما نربط ذلك بتحديد الزمن الذي مارس فيه المدرِّس تدريسه لأولئك الطلبة، وبتحديد الوضع القَبْلي لهم، ودرجة قربهم أو بعدهم مسبقاً عن أجواء اللغة الانكليزية وآدابها، وحجم الصعاب والعقبات الاستثنائية التي واجهت عملية التدريس، وأعاقت سيره الطبيعي، والهدف الذي كان ذلك المدرس

يتوخاه من تدريس طلبته آداب تلك اللغة ونسبة المحصول النهائي لعملية التدريس إلى حالات تدريس أخرى مختلفة.

ففي مجال تقييم التربية النبوية، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار:

أولاً: قصر الفترة الزمنية، التي مارس النبي ﷺ فيها تربيته، لأنها لا تتجاوز تقريباً عقدين من الزمن بالنسبة إلى أقدم صحبه من القلائل الذين رافقوه في بدايات الطريق، ولا تتجاوز عقداً واحداً من الزمن بالنسبة إلى الكثرة الكاثرة من الأنصار، ولا تتجاوز ثلاث سنوات أو أربع بالنسبة إلى الأعداد الهائلة التي دخلت الإسلام، ابتداءً منذ صلح الحديبية واستمراراً إلى حين فتح مكة.

ثانياً: الوضع المسبق الذي كان هؤلاء يعيشونه من الناحية الفكرية والروحية والدينية والسلوكية قبل أن يبدأ النبي بممارسة دوره وما كانوا عليه من سذاجة وفراغ وعفوية في مختلف مجالات حياتهم، ولا أجدني بحاجة إلى توضيح إضافي لهذه النقطة، لأنها واضحة بذاتها حيث إنّ

الإسلام لم يكن عملية تغيير في سطح المجتمع بل هو عملية تغيير في الجذور وبناء انقلابي لأمة جديدة، وهذا يعني الفاصل المعنوي الهائل بين الوضع المسبق والوضع الجديد الذي بدأ النبي ﷺ تربيته للأمة في اتجاهه.

ثالثاً: ما زخرت به تلك الفترة من أحداث وألوان الصراع السياسي والعسكري على جبهات متعددة، الأمر الذي ميّز طبيعة العلاقة بين الرسول الأعظم وصحابته، عن نوع العلاقة بين شخص كالسيد المسيح وتلامذته، فلم تكن علاقة مدرِّس ومربٍّ متفرغ لإعداد تلامذته وإنما هي العلاقة التي تتناسب مع موقع الرسول كمربٍّ وقائد حرب ورئيس دولة.

رابعاً: ما واجهته الجماعة المسلمة نتيجة احتكاكها بأهل الكتاب، وبثقافات دينية متنوعة من خلال صراعها العقائدي والاجتماعي فقد كان هذا الاحتكاك وما يطرحه على الساحة خصوم الدعوة الجديدة المثقفون بثقافات دينية سابقة، مصدر قلق وإثارة مستمرة وكلنا نعرف أنه شكّل بعد

ذلك تياراً فكرياً إسرائيلياً تسرَّب بصورة عفوية، أو بسوء نية، إلى كثير من مجالات التفكير، ونظرة فاحصة في القرآن الكريم تكفي لاكتشاف حجم المحتوى لفكرة الثورة المضادة، ومدى اهتمام الوحي برصدها ومناقشة أفكارها.

خامساً: إن الهدف الذي كان يسعى المربي الأعظم ﷺ لتحقيقه على المستوى العام في تلك المرحلة هو ايجاد القاعدة الشعبية الصالحة، التي يمكن لزعامة الرسالة الجديدة ـ في حياته وبعد وفاته ـ أن تتفاعل معها، وتواصل على طريقها التجربة، ولم يكن الهدف المرحلي وقتئذٍ تصعيد الأمة إلى مستوى هذه الزعامة نفسها بما تتطلبه من فهم كامل للرسالة، وتفقه شامل على أحكامها، والتحام مطلق مع مفاهيمها، وتحديد الهدف في تلك المرحلة بالدرجة التي ذكرناها كان أمراً منطقياً تفرضه طبيعة العمل التغييري، إذ ليس من المعقول أن يرسم الهدف إلا وفقاً لممكنات عملية، ولا إمكان عملي في حالة كالحالة التي واجهها الإسلام إلاّ ضمن الحدود التي ذكرناها، لأن الفاصل المعنوي والروحي والفكري والاجتماعي بين

الرسالة الجديدة والواقع الفاسد القائم وقتئذٍ، كان لا يسمح بالارتفاع بالناس إلى مستوى زعامة هذه الرسالة مباشرة وهذا ما سنشرحه في النقطة التالية ونبرهن عن طريقه على أن استمرار الوصاية على التجربة الانقلابية الجديدة متمثلة في إمامة أهل البيت، وخلافة علي عليه السلام كانت أمراً ضرورياً يفرضه منطق العمل التغييري على مسار التاريخ.

سادساً: إن جزءاً كبيراً من الأمة التي تركها النبي صلى الله عليه وآله بوفاته كان يمثل مسلمة الفتح، أي المسلمين الذي دخلوا الإسلام بعد فتح مكة وبعد أن أصبحت الرسالة الجديدة سيدة الموقف في الجزيرة العربية سياسياً وعسكرياً، وهؤلاء لم يتح للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أن يتفاعل معهم في الفترة القصيرة التي أعقبت الفتح إلا بقدر ضئيل، وكان جل تفاعله معهم بوصفه حاكماً بحكم المرحلة التي كانت الدولة الإسلامية تمرُّ بها، وفي هذه المرحلة برزت فكرة المؤلّفة قلوبهم والتي أخذت موضعها في تشريع الزكاة، وفي إجراءات أخرى، ولم يكن هذا الجزء من الأمة

مفصولاً عن الأجزاء الأخرى بل مندمجاً فيها ومؤثراً في نفس الوقت.

ففي إطار هذه الأمور الستة نجد أن التربية النبوية انتجت انتاجاً عظيماً، وحققت تحولاً فريداً، وأنشأت جيلاً صالحاً مؤهلاً لما استهدفه النبي من تكوين قاعدة شعبية صالحة للالتفاف حول الزعامة القائدة للتجربة الجديدة وإسنادها، ولهذا نجد أن ذلك الجيل كان يؤدي دوره كقاعدة شعبية صالحة ما دامت الزعامة القائدة الرشيدة كانت قائمة في شخص النبي، ولو قدّر لهذه الزعامة أن تأخذ مسارها الرباني لظلت القاعدة تؤدي دورها الصالح. غير أن هذا لا يعني بحال من الأحوال أنها مهيأة فعلاً لكي تسلّم هذه الزعامة وتقود بنفسها التجربة الجديدة، لأن هذه التهيئة تتطلب درجة أكبر من الانصهار الروحي والإيماني بالرسالة واحاطة أوسع بأحكامها ومفاهيمها ووجهات نظرها المختلفة عن الحياة، وتطهيراً أشمل لصفوفها من المنافقين والمندسّين والمؤلفة قلوبهم الذين كانوا لا يزالون يشكلون جزءاً من ذلك الجيل له أهميته العددية ومواقعه التاريخية

كما أن له آثاره السلبية بدليل حجم ما تحدث به القرآن الكريم عن المنافقين ومكائدهم ومواقفهم، وتواجد أفراد في ذلك الجيل قد استطاعت التجربة أن تبنيهم بناءً رسالياً رفيعاً، وتصهرهم في بوتقتها، كسلمان وأبي ذر وعمار وغيرهم.

أقول: إن تواجد هؤلاء الأفراد ضمن ذلك الجيل الواسع، لا يبرهن على أن ذلك الجيل ككل بلغ إلى الدرجة التي تبرر إسناد مهمات التجربة إليه على أساس الشورى.

وحتى أولئك الأفراد الذين مثلوا النمط الرفيع رسالياً من ذلك الجيل لا يوجد في أكثرهم ما يبرر افتراض كفاءتهم الرسالية لزعامة التجربة من الناحية الفكرية والثقافية على الرغم من شدة اخلاصهم وعمق ولائهم؛ لأن الإسلام ليس نظرية بشرية لكي يتحدد فكرياً من خلال الممارسة والتطبيق وتتبلور مفاهيمه عبر التجربة المخلصة، وإنما هو رسالة الله التي حددت فيها الأحكام والمفاهيم، وزودت ربانياً بكل التشريعات العامة التي تتطلّبها التجربة، فلا بدَّ لزعامة هذه

التجربة من استيعاب للرسالة بحدودها وتفاصيلها، ووعي لأحكامها ومفاهيمها وإلا اضطرت إلى استلهام مسبقاتها الذهنية ومرتكزاتها القَبْلية وأدى ذلك إلى نكسة في مسيرة التجربة وبخاصة إذا لاحظنا أن الإسلام كان هو الرسالة الخاتمة من رسالات السماء التي يجب أن تمتد مع الزمن وتتعدى كل الحدود الإقليمية والقومية، الأمر الذي لا يسمح بأن تمارس زعامته التي تشكل الأساس لكل ذلك الامتداد تجارب الخطأ والصواب التي تراكم فيها الأخطاء عبر فترة من الزمن حتى تشكل ثغرة تهدد التجربة بالسقوط والانهيار.

وكل ما تقدَّم يدل على أن التوعية التي مارسها النبي ﷺ على المستوى العام في المهاجرين والأنصار لم تكن بالدرجة التي يتطلبها اعداد القيادة الواعية الفكرية والسياسية لمستقبل الدعوة وعملية التغيير، وإنما كانت توعية بالدرجة التي تبني القاعدة الشعبية الواعية التي تلتف حول قيادة الدعوة في الحاضر والمستقبل.

وأي افتراض يتجه إلى القول بأن النبي ﷺ كان يخطط لإسناد قيادة التجربة والقيمومة على الدعوة بعده مباشرة إلى جيل المهاجرين والأنصار، يحتوي ضمناً اتهام أكبر وأبصر قائد رسالي في تاريخ العمليات التغييرية، بعدم القدرة على التمييز بين الوعي المطلوب على مستوى القاعدة الشعبية للدعوة والوعي المطلوب على مستوى قيادة الدعوة وإمامتها الفكرية والسياسية.

٣ ـ إن الدعوة عملية تغيير، ومنهج حياة جديد، وهي تكلف بناء أمة من جديد واقتلاع كل جذور الجاهلية ورواسبها من وجودها.

والأمة الإسلامية ـ ككل ـ لم تكن قد عاشت في ظل عملية التغيير هذه إلا عقداً واحداً من الزمن على أكثر تقدير، وهذا الزمن لا يكفي عادة في منطق الرسالات العقائدية والدعوات التغييرية لارتفاع الجيل الذي عاش في كنف الدعوة عشر سنوات فقط إلى درجة من الوعي والموضوعية والتحرّر من رواسب الماضي والاستيعاب

لمعطيات الدعوة الجديدة، تؤهله للقيمومة على الرسالة وتحمل مسؤوليات الدعوة ومواصلة عملية التغيير بدون قائد.

بل إنَّ منطق الرسالات العقائدية يفرض أن تمر بوصاية عقائدية فترة أطول من الزمن، تُهيئُها للارتفاع إلى مستوى تلك القيمومة.

وليس هذا شيئاً نستنتجه استنتاجاً فحسب، وإنما يعبر أيضاً عن الحقيقة التي برهنت عليها الأحداث بعد وفاة القائد الرسول ﷺ وتجلت بعد نصف قرن أو أقل من خلال ممارسة جيل المهاجرين والأنصار لإمامة الدعوة والقيمومة عليها إذ لم يمض على هذه القيمومة ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الرسالية التي تولى جيل المهاجرين والأنصار قيادتها، تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها أعداء الإسلام القدامى، ولكن من داخل إطار التجربة الاسلامية لا من خارجها، فاستطاعوا أن يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج، ويستغلوا

القيادة غير الواعية، ثم صادروا بكل وقاحة وعنف تلك القيادة، وأجبروا الأمة وجيلها الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته، وتحولت الزعامة إلى ملك موروث يستهتر بالمكرمات ويقتل الأبرياء ويُبعثر الأموال ويعطل الحدود ويجمد الأحكام ويتلاعب بمقدرات الناس وأصبح الفيء والسواد بستاناً لقريش، والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية.

فواقع التجربة بعد النبي ﷺ وما تمخض عنه بعد ربع قرن من نتائج يدعم الاستنتاج المتقدم الذي يؤكد أن إسناد القيادة والإمامة الفكرية والسياسية لجيل المهاجرين والأنصار عقب وفاة النبي ﷺ مباشرة، إجراء مبكر وقبل وقته الطبيعي، ولهذا ليس من المعقول أن يكون النبي ﷺ قد اتخذ إجراءً من هذا القبيل.

الطريق الثالث:

وهو الطريق الوحيد الذي بقي منسجماً مع طبيعة

الأشياء، ومعقولاً على ضوء ظروف الدعوة والدعاة وسلوك النبي ﷺ، وهو أن يقف النبي من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفاً إيجابياً فيختار بأمر من الله سبحانه وتعالى شخصاً يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة، فيعده إعداداً رسالياً وقيادياً خاصاً لتتمثل فيه المرجعية الفكرية والزعامة السياسية للتجربة، وليواصل بعده وبمساندة القاعدة الشعبية الواعية من المهاجرين والأنصار قيادة الأمة وبناءها عقائدياً، وتقويتها باستمرار نحو المستوى الذي يؤهلها لتحمل المسؤوليات القيادية.

وهكذا نجد بأن هذا هو الطريق الوحيد الذي كان بالإمكان أن يضمن سلامة مستقبل الدعوة وصيانة التجربة من الانحراف في خط نموها، وهكذا كان.

وليس ما تواتر عن النبي ﷺ من النصوص التي تدلُّ على أنه كان يمارس اعداداً رسالياً وتثقيفياً عقائدياً خاصاً لبعض الدعاة على مستوى يُهَيِّئُهُ للمرجعية الفكرية والسياسية، وأنه ﷺ قد عهد إليه بمستقبل الدعوة وزعامة

الأمة من بعده فكرياً وسياسياً، ليس هذا إلا تعبيراً عن سلوك القائد الرسول للطريق الثالث الذي كانت تفرضه، وتدل عليه قبل ذلك طبيعة الأشياء كما عرفنا.

ولم يكن هذا الشخص الواعي المرشح للإعداد الرسالي والقيادي والمنصوب لتسلم مستقبل الدعوة وتزعمها دينيّاً وسياسيّاً، إلا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي رشحه لذلك عمق وجوده في كيان الدعوة، وأنه المسلم الأول والمجاهد الأول في سبيلها عبر كفاحها المرير ضد كل أعدائها، وعمق وجوده في حياة القائد الرسول صلى الله عليه وآله وإنه ربيبه الذي فتح عينيه في حجره ونشأ في كنفه وتهيأت له من فرص التفاعل معه والاندماج بخطه ما لم يتوفر لأيِّ إنسان آخر.

والشواهد من حياة النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام، على أن النبي صلى الله عليه وآله كان يعدُّ الإمام إعداداً رسالياً خاصاً كثيرة جداً، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها، ويُبدِئُهُ بالعطاء الفكري والتثقيف، إذا استنفد

الإمام أسئلته، ويختلي به الساعات الطوال في الليل والنهار، يفتح عينيه على مفاهيم الرسالة ومشاكل الطريق ومناهج العمل إلى آخر يوم من حياته الشريفة.

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي إسحاق، سألت القاسم بن العباس، كيف ورث علي رسول الله؟ قال: لأنه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً.

وفي حلية الأولياء عن ابن عباس أنه يقول: كنا نتحدث أن النبي ﷺ عهد إلى علي سبعين عهداً ولم يعهد إلى غيره.

وروى النسائي عن ابن عباس عن علي، أنه يقول: كانت لي منزلة من رسول الله ﷺ لم تكن لأحد من الخلائق، كنت أدخل على نبي الله كل ليلة، فإن كان يصلي سبّح فدخلت، وإن لم يكن يصلي أذن لي فدخلت.

وروي أيضاً عن الإمام عليه السلام، قوله: كان لي مع النبي ﷺ مدخلان مدخل بالليل ومدخل بالنهار.

وروى النسائي عن الإمام أيضاً أنه كان يقول: كنت إذا

سألت رسول الله ﷺ أعطيت، وإذا سكت ابتدأني. ورواه الحاكم في المستدرك أيضاً، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وروى النسائي عن أم سلمة أنها كانت تقول: والذي تحلف به أم سلمة إن أقرب الناس عهداً برسول الله ﷺ علي عليه السلام قالت: لما كانت غداة قبض رسول الله فأرسل إلي رسول الله، فجاء قبل طلوع الشمس، فلما أن جاء عرفنا أن إليه حاجة، فخرجنا من البيت، وكنا عند رسول الله ﷺ يومئذ في بيت عائشة، وكنت في آخر من خرج من البيت، ثم جلست من وراء الباب، فكنت أدناهم إلى الباب، فأكبَّ عليه علي، فكان آخر الناس به عهداً فجعل يسارّه ويناجيه.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة الشهيرة وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول القائد وعناية النبي ﷺ بإعداده وتربيته:

«وقد علمتم موضعي من رسول الله والقرابة القريبة

والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل، وقد كنت اتّبعه اتباع الفصيل لأثر أمه، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشمُّ ريح النبوة».

إن هذه الشواهد وشواهد أخرى كثيرة، تقدم لنا صورة عن ذلك الإعداد الرسالي الذي كان النبي ﷺ يمارسه في سبيل توعية الإمام على المستوى القيادي للدعوة، كما أن في حياة الإمام علي عليه السلام بعد وفاة القائد الرسول ﷺ أرقاماً كثيرة جداً تكشف عن ذلك الإعداد العقائدي الخاص للإمام علي من قبل النبي، بما تعكسه من آثار ذلك الإعداد الخاص ونتائجه. فقد كان الإمام هو المفزع والمرجع لحلّ أي مشكلة يستعصي حلها على القيادة

الحاكمة وقتئذ، ولا نعرف في تاريخ التجربة الإسلامية على عهد الخلفاء الأربعة، واقعة واحدة رجع فيها الإمام إلى غيره لكي يتعرَّف على رأي الإسلام وطريقة علاجه للموقف، بينما في التاريخ عشرات الوقائع التي أحست القيادة الإسلامية الحاكمة فيها بضرورة الرجوع إلى الإمام بالرغم من تحفظاتها في الموضوع.

وإذا كانت الشواهد كثيرة على أن النبي ﷺ كان يعد الإمام إعداداً خاصاً لمواصلة قيادة الدعوة من بعده، فالشواهد على إعلام الرسول القائد عن تخطيطه هذا وإسناد زعامة الدعوة الفكرية والسياسية رسمياً إلى الإمام علي عليه السلام لا تقل عنها كثرة، كما نلاحظ ذلك في «حديث الدار» و «حديث الثقلين» و «حديث المنزلة» و «حديث الغدير» وعشرات النصوص النبوية الأخرى.

وهكذا وجد التشيع في إطار الدعوة الإسلامية متمثّلاً في الأطروحة النبوية التي وضعها النبي ﷺ بأمر من الله للحفاظ على مستقبل الدعوة.

وهكذا وجد التشيع لا كظاهرة طارئة على مسرح الأحداث، بل كنتيجة ضرورية لطبيعة تكوّن الدعوة وحاجاتها وظروفها الأصلية التي كانت تفرض على الإسلام أن يلد التشيع.

وبمعنى آخر كانت تفرض على القائد الأول للتجربة، أن يعد للتجربة قائدها الثاني، الذي تواصل على يده ويد خلفائه التجربة، وتقترب نحو إكتمال هدفها التغييري في اجتثاث كل رواسب الماضي الجاهلي وجذوره وبناء أمة جديرة على مستوى متطلبات الدعوة ومسؤولياتها.

كيف وجدت الشيعة؟

عرفنا الآن كيف ولد التشيع، أما كيف ولدت الشيعة ونشأ الانقسام على أساس ذلك في الأمة؟

فهذا ما سنجيب عليه الآن:

إننا إذا تتبعنا المرحلة الأولى من حياة الأمة الإسلامية في عصر النبي ﷺ نجد بأن اتجاهين رئيسين مختلفين قد رافقا نشوء الأمة وبداية التجربة الإسلامية منذ السنوات الأولى، وكانا يعيشان معاً داخل إطار الأمة الوليدة التي أنشأها الرسول القائد، وقد أدى هذا الاختلاف بين الاتجاهين إلى انقسام عقائدي عقيب وفاة الرسول ﷺ مباشرة، شطر الأمة الإسلامية إلى شطرين قدر لأحدهما أن يحكم، فاستطاع أن يمتد ويستوعب أكثرية المسلمين، بينما

أقصي الشطر الآخر عن الحكم وقدِّر له أن يمارس وجوده كأقلية معارضة ضمن الإطار الإسلامي العام، وكانت هذه الأقلية هي (الشيعة).

والاتجاهان الرئيسان اللذان رافقا نشوء الأمة الإسلامية في حياة النبي ﷺ منذ البدء هما:

أولا ـ الاتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالدين وتحكيمه والتسليم المطلق للنص الديني في كل جوانب الحياة.

وثانياً ـ الاتجاه لا يرى أن إيمانه بالدين يتطلب منه التعبد إلا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات، ويؤمن بإمكانية الاجتهاد، وجواز التصرف على أساسه بالتغيير والتعديل في النص الديني وفقاً للمصالح في غير ذلك النطاق من مجالات الحياة.

وبالرغم من أن الصحابة بوصفهم الطليعة المؤمنة والمستنيرة كانوا أفضل وأوسع بذرة لنشء رسالي، حتى أن تاريخ الإنسان لم يشهد جيلاً عقائدياً أروع وأطهر وأنبل من الجيل الذي أنشأه الرسول القائد...

وبالرغم من ذلك، من الضروري التسليم بوجود اتجاه واسع منذ كان النبي ﷺ على قيد الحياة، يميل إلى تقديم الاجتهاد في تقدير المصلحة واستنتاجها من الظروف على التعبُّد بحرفية النص الديني، وقد تحمل الرسول المرارة في كثير من الحالات بسبب هذا الاتجاه حتى وهو على فراش الموت في ساعاته الأخيرة على ما يأتي، كما أن هناك اتجاهاً آخر يؤمن بتحكيم الدين والتسليم له والتعبُّد بكل نصوصه في جميع جوانب الحياة.

وقد يكون من عوامل انتشار الاتجاه الثاني (الاجتهادي) في صفوف المسلمين أنه يتفق مع ميل الإنسان بطبيعته إلى التصرف وفقاً لمصلحة يدركها ويقدرها، بدلاً عن التصرف وفقاً لقرار لا يفهم مغزاه.

وقد قدر لهذا الاتجاه ممثلون جريئون من كبار الصحابة، من قبيل عمر بن الخطاب الذي ناقش الرسول ﷺ واجتهد في مواضع عديدة خلافاً للنص، إيماناً منه بأن له مثل هذا الحق.

وبهذا الصدد يمكن أن نلاحظ، موقفه من صلح «الحديبية» واحتجاجه على هذا الصلح، وموقفه من الأذان وتصرفه فيه باسقاط (حي على خير العمل)، وموقفه من النبي ﷺ حين شرع متعة الحج... إلى غير ذلك من مواقفه الاجتهادية.

وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول ﷺ في آخر يوم من أيام حياته، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس، قال: «لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي: هلم اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده. فقال عمر: إنَّ النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم: قوموا».

وهذه الواقعة وحدها كافية للتدليل على عمق

الاتجاهين ومدى التناقض والصراع بينهما.

ويمكن أن نضيف إليها ـ لتصوير عمق الاتجاه ورسوخه ـ ما حصل من نزاع وخلاف بين الصحابة حول تأمير «أسامة بن زيد» على الجيش، بالرغم من النصّ النبوي الصريح على ذلك، حتى خرج الرسول ﷺ وهو مريض، وخطب الناس وقال:

«أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله، وأيم الله إنه كان لخليقاً بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق بها».

وهذان الاتجاهان اللذان بدأ الصراع بينهما في حياة النبي ﷺ قد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة زعامة الإمام للدعوة بعد النبي ﷺ.

فالممثلون للاتجاه التعبدي وجدوا في النص النبوي على هذه الأطروحة سبباً ملزماً لقبولها دون توقف أو تعديل، وأما الاتجاه الثاني فقد رأى إنه بإمكانه أن يتحرر

من الصيغة المطروحة من قبل النبي ﷺ إذا أدى اجتهاده إلى صيغة أخرى أكثر انسجاماً في تصوره مع الظروف.

وهكذا نرى أن الشيعة ولدوا بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة، متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عملياً لأطروحة زعامة الإمام علي عليه السلام وقيادته التي فرض النبي الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة.

وقد تجسّد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الأولى في إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي عليه السلام وإسناد السلطة إلى غيره.

ذكر الطبرسي في الاحتجاج عن أبان بن تغلب، قال: قلت لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام: جعلت فداك هل كان أحد في أصحاب رسول الله أنكر على أبي بكر فعله؟ قال: نعم كان الذي أنكر عليه اثني عشر رجلاً من المهاجرين: خالد بن سعيد بن أبي العاص، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وبُريدة الأَسلمي، ومن الانصار: ابو الهيثم بن

التيهان، وعثمان بن حنيف، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأبي بن كعب وأبو أيوب الأنصاري.

وقد تقول: إذا كان الاتجاه الشيعي يمثل التعبد بالنص، والاتجاه الآخر المقابل له يمثل الاجتهاد، فهذا يعني أن الشيعة يرفضون الاجتهاد ولا يسمحون لأنفسهم به، مع أننا نجد أن الشيعة يمارسون عملية الاجتهاد في الشريعة دائماً!

والجواب: إن الاجتهاد الذي يمارسه الشيعة ويرونه جائزاً بل واجباً وجوباً كفائياً هو الاجتهاد في استنباط الحكم من النص الشرعي، لا الاجتهاد في رفض النص الشرعي لرأي يراه المجتهد أو لمصلحة يخمّنها، فإن هذا غير جائز، والاتجاه الشيعي يرفض أي ممارسة للاجتهاد بهذا المعنى، ونحن حينما نتحدث عن قيام اتجاهين منذ صدر الإسلام:

أحدهما: اتجاه التعبد بالنص.

والآخر: إتجاه الاجتهاد.

نعني بالاجتهاد الاجتهاد في رفض النص أو قبوله.

وقيام هذين الاتجاهين شيء طبيعي في ظلّ كل رسالة تغييرية شاملة، تحاول تغيير الواقع الفاسد من الجذور فإنها تتخذ درجات مختلفة من التأثير حسب حجم الرواسب المسبقة ومدى انصهار الفرد بقيم الرسالة الجديدة ودرجة ولائه لها. وهكذا نعرف أن الاتجاه الذي يمثل التعبد بالنص يمثل الدرجة العليا من الانصهار بالرسالة والتسليم الكامل لها، وهو لا يرفض الاجتهاد ضمن إطار النص وبذل الجهد في استخراج الحكم الشرعي منه.

ومن المهم أن نشير بهذا الصدد أيضاً إلى أن التعبد بالنص لا يعني الجمود والتصلب الذي يتعارض مع متطلبات التطور وعوامل التجديد المختلفة في حياة الإنسان؛ فإن التعبد بالنص معناه كما عرفنا التعبد بالدين والأخذ به كاملاً دون تبعيض، وهذا الدين نفسه يحمل في أحشائه كل عناصر المرونة والقدرة على مسايرة الزمن واستيعابه بكل ما يحمل من ألوان التجديد والتطور، فالتعبد به وبنصه تعبد بكل تلك العناصر وبكل ما فيها من قدرة على الخلق والإبداع والتجديد.

هذه خطوط عامة عن تفسير التشيع بوصفه ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية، وتفسير ظهور الشيعة كاستجابة لتلك الظاهرة الطبيعية.

وإمامة أهل البيت والإمام علي، التي تمثلها تلك الظاهرة الطبيعية تعبر عن مرجعيتين: إحداهما المرجعية الفكرية، والأخرى المرجعية في العمل القيادي والاجتماعي، وكلتا المرجعيتين كانتا تتمثلان في شخص النبي ﷺ وكان لا بدَّ ـ على ضوء ما درسنا من ظروف ـ أن يصمم الرسول الأعظم ﷺ الامتداد الصالح له لتحمل كلتا المرجعيتين، لكي تقوم المرجعية الفكرية بملأ الفراغات التي قد تواجهها ذهنية المسلمين وتقديم المفهوم المناسب، ووجهة النظر الإسلامية فيما يستجد من قضايا الفكر والحياة، وتفسير ما يشكل ويغمض من معطيات الكتاب الكريم الذي يشكل المصدر الأول للمرجعية الفكرية في الإسلام، ولكي تقوم المرجعية القيادية الاجتماعية

بمواصلة المسيرة وقيادة التجربة الإسلامية في خطها الاجتماعي.

وقد جمعت كلتا المرجعيتين لأهل البيت عليهم السلام بحكم الظروف التي درسناها وجاءت النصوص النبوية الشريفة تؤكد ذلك باستمرار. والمثال الرئيسي للنص النبوي على المرجعية الفكرية حديث الثقلين إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنَّ اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[١].

والمثال الرئيسي للنص النبوي على المرجعية في العمل القيادي الاجتماعي، حديث الغدير حيث أخرج

(١) أخرج ذلك الحاكم في مستدركه على الصحيحين والترمذي والنسائي وأحمد بن حنبل وغيرهم من الحفاظ عن أكثر من عشرين صحابياً.

الطبراني بسند مجمع على صحته عن زيد بن أرقم قال: خطب رسول الله ﷺ بغدير خم تحت شجرات، فقال:

أيها الناس يوشك أن ادعى فأجيب وإني مسؤول وإنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد انك قد بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيراً. فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق وأن الموت حق وأن البعث حقّ بعد الموت وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور؟

فقالوا: بلى نشهد بذلك، قال:

اللهم اشهد. ثم قال: يا أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فهذا مولاه ـ يعني علياً ـ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[1].

---

(١) وحديث الغدير مستفيض في كتب الحديث عند الشيعة والسنة معاً وقد أحصى بعض المحققين عدد رواة الحديث من الصحابة فكانوا =

وهكذا جسد هذان النصان النبويان الشريفان وفي عدد كبير من أمثالهما كلتا المرجعيتين في أهل البيت عليهم السلام.

وقد أخذ الاتجاه الإسلامي القائم على التعبد بنصوص النبي صلى الله عليه وآله بكلا النصين، وآمن بكلتا المرجعيتين وهو اتجاه المسلمين الموالين لأهل البيت. ولئن كانت المرجعية القيادية الاجتماعية لكل إمام تعني ممارسته للسلطة خلال حياته فإن المرجعية الفكرية حقيقة ثابتة مطلقة لا تتقيد بزمان حياة الإمام. ومن هنا كان لها مدلولها العملي الحي في كل وقت فما دام المسلمون بحاجة إلى فهم محدَّد للإسلام وتعرف على أَحكامه وحلاله وحرامه ومفاهيمه وقيمه فهم بحاجة إلى المرجعية الفكرية المحددة ربانياً المتمثلة أولاً: في كتاب الله تعالى وثانياً في سنة رسوله صلى الله عليه وآله والعترة المعصومة من أهل البيت التي لا تفترق ولن نفترق عن الكتاب كما نصَّ الرسول الأعظم.

= أكثر من مائة وعددهم من التابعين فكانوا أكثر من ثمانين تابعياً وعددهم من حفاظ القرن الثاني فكانوا قرابة ستين شخصاً من حفاظ الحديث ورجالاته وهكذا لاحظ كتاب الغدير للشيخ الأميني.

وأما الاتجاه الآخر من المسلمين الذي قام على الاجتهاد بدلاً عن التعبد بالنص، فقد قرر في البدء عند وفاة الرسول الأعظم ﷺ تسليم المرجعية القيادية التي تمارس السلطة إلى رجالات من المهاجرين وفقاً لاعتبارات متغيرة ومتحركة ومرنة، وعلى هذا الأساس تسلم أبو بكر السلطة بعد وفاة النبي مباشرة على أساس ما تم من تشاور محدود في مجلس السقيفة، ثم تولى الخلافة عمر بنص محدَّد من أبي بكر، وخلفهما عثمان بنص غير محدد من عمر، وأدت المرونة بعد ثلث قرن من وفاة الرسول القائد إلى تسلل أبناء الطلقاء الذين حاربوا الإسلام بالأمس إلى مراكز السلطة.

هذا فيما يتصل بالمرجعية القيادية التي تمارس السلطة، وأما بالنسبة إلى المرجعية الفكرية فقد كان من الصعب إقرارها في أهل البيت بعد أن أدى الاجتهاد إلى انتزاع المرجعية القيادية منهم؛ لأن اقرارها كان يعني خلق الظروف الموضوعية التي تمكنهم من تسلم السلطة والجمع بين المرجعيتين، كما أنه كان من الصعب أيضاً من الناحية

الأخرى الاعتراف بالمرجعية الفكرية لشخص الخليفة الذي يمارس السلطة، لأن متطلبات المرجعية الفكرية تختلف عن متطلبات ممارسة السلطة فالإحساس بجدارة الشخص لممارسة السلطة والتطبيق لا يعني بحال الشعور بإمكانية نصبه إماماً فكرياً ومرجعاً أعلى بعد القرآن والسنة النبوية لفهم النظرية؛ لأن هذه الإمامة الفكرية تتطلب درجة عالية من الثقافة والاحاطة واستيعاب النظرية، وكان من الواضح أن هذا لم يكن متوفراً في أي صحابي بمفرده ـ إذا قطع النظر عن أهل البيت ـ.

ولهذا ظل ميزان المرجعية الفكرية يتأرجح فترة من الزمن، وظل الخلفاء في كثير من الحالات يتعاملون مع الإمام علي على أساس إمامته الفكرية، أو على أساس قريب من ذلك حتى قال الخليفة الثاني مرات عديدة:

«لولا علي لهلك عمر، ولا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن».

ولكن بمرور لزمن بعد وفاة النبي ﷺ وتعود

المسلمين تدريجاً على النظر إلى أهل البيت والإمام علي بوصفهم أشخاصاً اعتياديين ومحكومين أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم الفكرية أساسا وإسنادها إلى بديل معقول، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة، بل الصحابة وهكذا وُضع بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلاً عن مرجعية أهل البيت، وهو بديل يستسيغه النظر بعد تجاوز المرجعية المنصوصة لأن هؤلاء هم الجيل الذي رافق النبي ﷺ وعاش حياته وتجربته وروى حديثه وسنته.

وبهذا فقد أهل البيت عملياً امتيازهم الرباني وأصبحوا يشكلون جزءاً من المرجعية الفكرية بوصفهم صحابة. وبحكم ما قدر أن عاشه الصحابة أنفسهم من اختلافات حادة وتناقضات شديدة بلغت في كثير من الأحيان إلى مستوى القتال، وهدر كل فريق دم الفريق الآخر وكرامته واتهامه بالانحراف والخيانة. أقول بحكم هذه الاختلافات والاتهامات بين صفوف الإمامة الفكرية والمرجعية العقائدية نفسها، نشأت ألوان من التناقض العقائدي والفكري في جسم الأمة الإسلامية، كإنعكاسات لأوجه التناقض في

داخل تلك الإمامة الفكرية التي قرَّرها الاجتهاد.

وأود أن أشير قبل الختام إلى نقطة، واعتبر توضيحها على درجة كبيرة من الأهمية، فإن بعض الباحثين يحاول التمييز بين نحوين من التشيع: أحدهما التشيع الروحي، والآخر التشيع السياسي، ويعتقد أن التشيع الروحي أقدم عهداً من التشيع السياسي، وأن أئمة الشيعة الامامية في أبناء الحسين عليه السلام قد اعتزلوا بعد مذبحة كربلاء الحياة السياسية وانصرفوا إلى الإرشاد والعبادة والانقطاع عن الدنيا.

والحقيقة أن التشيع لم يكن في يوم من الأيام منذ ولادته مجرَّد اتجاه روحي بحت، وإنما ولد التشيع في أحضان الإسلام بوصفه أطروحة مواصلة الإمام علي للقيادة بعد النبي صلى الله عليه وآله فكرياً واجتماعياً على السواء، كما أوضحنا سابقاً عند استعراض الظروف التي أدت إلى ولادة التشيع.

ولم يكن بالإمكان بحكم هذه الظروف التي استعرضناها أن يفصل الجانب الروحي عن الجانب

الاجتماعي في أطروحة التشيع، تبعاً لعدم انفصال أحدهما عن الآخر في الإسلام.

فالتشيع إذن لا يمكن أن يتجزأ إلا إذا فقد معناه كأطروحة لحماية مستقبل الدعوة بعد النبي ﷺ، وهو مستقبل بحاجة إلى المرجعية الفكرية والزعامة الاجتماعية للتجربة الإسلامية معاً.

وقد كان هناك ولاء واسع النطاق للإمام علي عليه السلام في صفوف المسلمين باعتباره الشخص الجدير بمواصلة دور الخلفاء الثلاثة في الحكم، وهذا الولاء هو الذي جاء به إلى السلطة عقيب قتل عثمان، وهذا الولاء ليس تشيعاً روحياً ولا اجتماعياً، لأن التشيّع يؤمن بعلي كبديل عن الخلفاء الثلاثة وخليفة مباشر للرسول، فالولاء الواسع للإمام في صفوف المسلمين أوسع نطاقاً من التشيّع الحقيقي الكامل، وإنما التشيّع الروحي والاجتماعي الكامل داخل إطار هذا الولاء فلا يمكن أن نعتبره مثالاً على التشيّع المجزأ.

كما أن الإمام عليه السلام كان يتمتع بولاء روحي وفكري من عدد من كبار الصحابة في عهد أبي بكر وعمر، من قبيل سلمان وأبي ذر وعمّار وغيرهم، ولكن هذا لا يعني أيضاً تشيّعاً روحياً منفصلاً عن الجانب الاجتماعي، بل انه تعبير عن إيمان أولئك الصحابة بقيادة الإمام علي عليه السلام للدعوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله فكرياً واجتماعياً، وقد انعكس إيمانهم بالجانب الفكري من هذه القيادة بالولاء الروحي المتقدم.

وانعكس إيمانهم بالجانب الاجتماعي منها بمعارضتهم لخلافة أبي بكر وللاتجاه الذي أدى إلى صرف السلطة عن الإمام عليه السلام إلى غيره.

ولم تنشأ في الواقع، النظرة التجزيئية للتشيع الروحي بصورة منفصلة عن التشيّع الاجتماعي، ولم تولد في ذهن الإنسان الشيعي إلا بعد أن استسلم للواقع وانطفأت جذوة التشيّع في نفسه كصفة محدودة لمواصلة القيادة الإسلامية في بناء الأمة وانجاز عملية التغيير الكبيرة التي بدأها الرسول الكبير صلى الله عليه وآله وتحولت إلى مجرّد عقيدة يطوي الإنسان عليها

قلبه أو يستمد منها سلوته وأمله.

وهنا نصل إلى ما يقال من أن أئمة أهل البيت عليهم السلام من أبناء الحسين عليه السلام اعتزلوا الحياة الاجتماعية وانقطعوا عن الدنيا، فنلاحظ أن التشيع بعد أن فهمناه كصيغة لمواصلة القيادة الإسلامية، والقيادة الإسلامية لا تعني إلا ممارسة عملية التغيير التي بدأها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لتكميل بناء الأمة على أساس الإسلام، فليس من الممكن أن نتصور تنازل الأئمة عليهم السلام عن الجانب الاجتماعي إلا إذا تنازلوا عن التشيّع.

غير أن الذي ساعد على تصور اعتزال الأئمة عليهم السلام وتخليهم عن الجانب الاجتماعي من قيادتهم، ما بدا من عدم إقدامهم على عمل مسلح ضدّ الوضع القائم وإعطاء الجانب الاجتماعي معنى ضيقاً لا ينطبق إلا على عمل مسلح من هذا القبيل.

ولدينا نصوص عديدة عن الأئمة عليهم السلام توضح أن إمام الوقت دائماً كان مستعداً لخوض عمل مسلح إذا

وجدت لديه القناعة بوجود الأنصار والقدرة على تحقيق الأهداف الإسلامية من وراء ذلك العمل المسلح.

ونحن إذا تتبعنا سير الحركة الشيعية، نلاحظ أن القيادة الشيعية المتمثلة في أئمة أهل البيت عليهم السلام كانت تؤمن بأن تسلم السلطة وحده لا يكفي ولا يمكن من تحقيق عملية التغيير إسلامياً، ما لم تكن هذه السلطة مدعمة بقواعد شعبية واعية تعي أهداف تلك السلطة وتؤمن بنظريتها في الحكم، وتعمل في سبيل حمايتها وتفسير مواقفها للجماهير، وتصمد في وجه الأعاصير.

وفي نصف القرن الأول بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله كانت القيادة الشيعية ـ بعد إقصائها عن الحكم ـ تحاول باستمرار استرجاع الحكم بالطرق التي تؤمن بها، لأنها كانت تؤمن بوجود قواعد شعبية واعية أو في طريق التوعية من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، ولكن بعد نصف قرن ـ وبعد أن لم يبق من هذه القواعد الشعبية الشيء المذكور ونشأت أجيال مائعة في ظل الانحراف ـ لم يعد

تسلُّم الحركة الشيعية للسلطة تحقيقاً للهدف الكبير، لعدم وجود القواعد الشعبية المساندة بوعي وتضحية.

وأمام هذا الواقع كان لا بد من عملين:

أحدهما: العمل من أجل بناء هذه القواعد الشعبية الواعية التي تُهيّىء أرضية صالحة لتسلُّم السلطة.

والآخر: تحريك ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها والاحتفاظ بالضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصِّن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين.

والعمل الأول هو الذي مارسه الأئمة عليهم السلام بأنفسهم، والعمل الثاني هو الذي مارسه ثائرون علويون كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية، وكان الأئمة عليهم السلام يسندون المخلصين منهم.

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام للمأمون وهو يحدثه عن زيد بن علي الشهيد: «انه كان من علماء آل

محمّد ﷺ غضب لله فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر عليه السلام أنه سمع أباه جعفر يقول: رحم الله عمي زيداً، إنه دعا إلى الرضا من آل محمد، ولو ظفر لوفى من ذلك وأنه قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد»[١].

فترك الأئمة عليهم السلام إذن العمل المسلح بصورة مباشرة ضد المنحرفين، لم يكن يعني تخليهم عن الجانب الاجتماعي من قيادتهم وانصرافهم إلى العبادة، وإنما كان يعبر عن اختلاف صيغة العمل الاجتماعي التي تحددها الظروف الموضوعية وعن إدراك معمّق لطبيعة العمل التغييري وأسلوب تحقيقه.

(١) الوسائل، كتاب الجهاد.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم:	٥
ـ الكتاب	٥
ـ الكاتب	٧
الفصل الأول: صفحات من فضائل الإمام علي	**١٣**
ـ الولادة والنسب	١٥
ـ اسلامه	١٧
ـ اخو الرسول ووصيه	١٨
ـ علي يفدي رسول الله (ص)	١٩

- علي والجهاد ٢٢
- علي والعبادة ٢٩
- علي والزهد ٣٠
- علي والصفح ٣٣
- علي والفصاحة ٣٤
- علي والعلم ٣٦
- علي والسخاء ٣٧
- خاتمه ٣٨

الفصل الثاني: سيرة علي بعد رحيل الرسول (ص) ٤١
- علي بعد وفاة الرسول (ص) ٤٣
- بعض المشاكل التي واجهت امير المؤمنين (ع) ٦٨
- أشأم ليلة ١٣٩

الفصل الثالث: علي والشيعة ١٩٣
تمهيد ١٩٥

كيف ولد التشيع؟ ١٩٨
كيف وُجدت الشيعة؟ ١٩٨
الفهرس ٢٦٩





يعرض
الشهيد الصدر في هذا الكتاب:

- سيرة الإمام علي (ع) بعد رحيل الرسول المصطفى (ص).

- أهم المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين أثناء خلافته.

- ليلة وفاة الإمام علي (ع) ونتائج شهادته المباركة.

دار المرتضى
لبنان - بيروت. ص. ب. ٢٥/١٥٥ الغبيري
هاتف وفاكس: ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٤٢
E-mail:mortada14@hotmail.com